أحمد ضحية

ثلاثية الأعتم
بن ابي ليل الظلامي
الجزء الثالث

الكتَابة على نَهْد نخلة

رواية

دار بسمة
للنشر الإلكتروني

الكتابة على نَهْدِ نخلة

أحمد ضحية

اسم الكتاب: الكتابة على نهد نخلة

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نـوع العمل: رواية

عدد الصفحات: 116

التدقيق اللغوي: الكاتب أحمد ضحية

الرقم الدولي EBIN: 16-142-01-210818

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

محفوظة جميع حقوق

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاســـترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر. ©

الكتابة على نَهْدِ نخلة

ثلاثية الأعتم بن أبي ليل الظلامي

الجزء الثالث

أحمد ضحية

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى

أبي

محمد ضحية أحمد

ليست العظمة في أن لا تسقط أبداً، العظمة أن تنهض كلما سقطت.
الفيلسوف الحكيم
كونفوشيوس

عندما نطوف بين الناس، سندرك تباين أفكارهم وآرائهم وعاداتهم، وسندرك أن الخير والشر، نسبيان. والقِيّم الأخلاقية ليست ثابتة! فما يحله قوم يحرمه قوم آخرون!
سندرك سذاجة عقيدتهم وعقليتهم، ونسفه تعاليمهم ووصاياهم، التي ابتدعوها لأنفسهم! وادعوا أنها من وحي السماء!
الفيلسوف الحكيم
بوذا

يا بُني، أنظر مواليك، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم. فإنهم مادتك لشدّة إن نزلت بك.. وما أظنك تفعل!
وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك، الذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك. ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم: أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنك تفعل.
وصية الخليفة المنصور
لولي عهده المهدي

تُرى هل مرّت على "الأعتم بن أبي ليل الظلامي،" لحظة كهذه اللحظة التي يعيشـــها هو.. "الأيهم"؛ الآن؟ هل راقب إبنه "الطرباق" في طفولته، وهو يقفز هنا وهناك كحملٍ شـــقّي.. ربما يجذبه من لحيته أو يقفز عليه بقوّة، دون أن يفكر في أن هذه القفزّة؛ أشبه بركلةٍ مؤذية؟

وهل اســـتعاد في مثل هذه اللحظة، حياته مع "ورد المدائن".. حبهما اليانع، الطرّي وهو ينّمو بهما؛ يوماً بعد يوم، دون أن تهزّه عواصـــف التحوّلات، التي قلبت "مراتع الفقرا" عن ظهرِ قلب، وجعلت عاليها سافلها!

خطرّت على بالِ "الأيهم" الكثير من الخواطرِ، وهو يرّاقب إبنه الأيهم الصغير، فيما وقائع وذكريات حياته؛ تضمحل، وتذوب شيئاً فشيئاً، تحت وطأة التغييرّات المتسارّعة، التي اجتاحت" البلاد الأسيرّة" كسيلٍ هادر، جرف في طريقه كل شيء!

فلم يبق من" الأميرّة القَّن" ســـوى طيفها؛ ووداعة عينيها، التي أورثتها للأيهم الصغير!.. فعينيه.. هي عينيها ذاتهما ببريقهما، الذي لا يخبو مهما تعاقب عليه الليل والنّهار، والوَقائِع والأَحْدَاث..

ومهما اشتبكت الطيوف الليلية وتعارَكت، ومهما مضت السنوات تلو السنوات، فبريق الذّكرى يظل هو نفسه، ثابت في تلك اللحظة البعيدة!..

لحظة رآها أول مرّة عند صديقه العطار "كبسور" النطاسي.. وكما رآها آخر مرّة، وهي تنزف بين ذراعيه وتفارق الحيّاة إلى الأبد!

كان كل شيء لحظتها قد توقف!.. تيار الزّمن.. همس جريد "نخلة المخطوطة"، وهي تصارع ريح الخريف العجولة.. نقيق الضفادع في مجاري وخيران وبرك البلدة القديمّة، أصوات حشرّات الليل المبتل بالأسى.. الأهالي الذين أنهك صدورهم الضيقة الشخير.. المشاعل الخابية في تردد بطئ؛ والتي لا يزال هواء ما بعد المطر، يتلاعب بذؤاباتها.. الأشياء جميعها..

كل شيء إلا بريق عيني القَّن، الذي استحال إلى عصفور صغير، وحلق يتبع ضوء قمر "اربعتاشر" الفضي.. حلق وحلق إلى أن غاب في الفضاء الرّحب، عائداً إلى حضن مصدرّه القمر في السماوات البعيدة!

أغمض الأيهم عينيها بأصابع مرتجفة، امتزج فيها الدّم؛ بدموعه التي انحدرت دون توقف، ودواخله مشتعلة في مزيج من نار الحب والأحزان!.. وهو يدفنها كانت ذاكرته تعود شيئاً فشيئاً، إلى لحظة البداية، عندما شكى الأيهم لصديقه العطار كبسور النطاسي، عن مقدار الحب الذي يكنّه للأميرّة القَّن ،ولكن بدى واضحاً له، أن العطار لم يكن يبالي بما يقول، بل أشعرته الحرّكة الخفيفة؛ التي ندت عن جفنيه المنكفئين على عينين مختبئتين في عتمّة العمّى، كانهما تهزآن منه!

طلب منه العطار ألا يبوح لأحد بما يعصف به. وكان الأيهم مستغرباً من رد فعل العطار، على هذا البوح. فأحس أن العطار يخفي عنه شيئاً، فأخذ يستجوبه في إلحاح:

"هل للأمر علاقة بقائد العسس دكّام؟"

ولما لم يجد العطار بداً، أخبره أنه سمع "عشميق الأصم" وشلة شعرائه الصعاليك، يتحدثون عنها وعن حبيبها "وّشم الدّم"، وأنه ليس بإمكانه لفت نظرها إلا بالحيلة، ووعده بالتفكير في شيء يقربها منه. ثم حسمه بقوله:

"دع الأمر لي"

لحظتئذ شعر الأيهم بعذاب لا حدود له، إذ رأى آماله التي ناءت بها، سنوات عمره الستين؛ كأنها سرّاب؛ في مدى لا نهائي!

ومضى يبث مخطوطاته أحزانه، ويحاول نسيان الأميرّة القَّن، التي استحوّذت على كيانه، في لحظتين كانتا كافيتين لتغيير كل شيء:

حين رآها في المرّة الأولى؛ عند صديقه العطار، وحين أطلّت فجأة في مدخل خمارّة "عشا البايتات" السلولي.. وقتها؛ تبدد كل ما في الكون، وبقيت وحدها تملأ فضاءات المكان والزّمن..

في تلك اللحظة الكونية المستحوذّة، على الزّمان والمكان؛ مرّت كل حياته أمام ناظريه.. "قرقودة "جارية زوجته" المتن "وجاريتيه" الشول والزالفة.".

مخطوطاته.. إرث آل الاعتم الثقيل.. شـــوقه للولد الذي لم ينجبه بعد، ورأى اسمه مكتوباً على صدرّها وهي ترضعه.. رأى الأيهم الصغير..

رأى كل شيء فجن جنونه.. منذها كل شيء تغيّر.. خلال لحظة خاطفة؛ لكن كافية لأن يصبح شخصاً آخر؛ لم يكنه يوماً؛ ليس هو الذي يعرفه!

أسَره حبها.. سكنته عيناها الساحرتين؛ لكن الوديعتان، وجسمها الكاسر المفترس. وود في كلتا اللحظتين؛ لو واتته الشـــجاعة؛ وعبر لها عن هذا الحب ملء فيه!

ترى هل يقبل جسدها الفتي الشاب سنواته الستين، هل ما يحركه نحوها، هو العثور على أليف مفقود؛ ظل يبحث عنه حياته كلها، أم هي الشـهوّة فحســـب، التي ســـرّعان ما تنطفئ؛ مثلما انطفأت مع إبنة عمه المتن، وجارياته الممتلئات!

لم يجرؤ على الحديث معها، في كلتا اللحظتين.. لم يركع أمامها بكل خضــوع ويعترف، بما يحمله هذا القلب المنهك، وتســاءل وقتها؛ إذا نجح العطار وتحقق مراده، هل ســيحدث الشــيء نفســه؛ الذي حدث له مع المتن؟

تصبح علاقتهما بمرور الوقت عادة، وتفتر.. تصبح بمثابة واجب كريه! أم أن ما بينهما ســـيكون مختلفاً.. جذوّة متجدّدة لا تخبو نيرانها، تلتهم الاعتياد وتنمو، كبوح مشتعل لا ينطفئ!

وبينما هو مُتناهب بالمشـاعر والأحاسـيس، كان صـديقه العطار منهمكاً، في إغلاق كل الأبواب أمام وّشم الدّم وعشميق، اللذان لم يشعرا أبداً، بما يحيكه رفاقهما من الشعراء الصعاليك، خفية مع العطار الأعمى.

وفيما كل هذه الوقائع تجري، كان الأيهم يخرج من مخطوطاته، يبحث عن القَّن، في البلدة القديمّة.. مزارع النخيل.. الدروب الضـــيقة؛ التي تفترق عندها الدور العتيقة، يمني نفســـه بأن يلمحها تخرج من هنا، أو تأتي من هناك دون جدوى!

في هذه البلدة المزدحمة بالجند والعســـس؛ والطيوف الليلية التي لا تهدأ، كان اليأس يزحف رويدًا رويدًا، يســـتحوّذ عليه.. والعطار يحاول طمأنته دون جدوى!

لأول مرة؛ في حياته العامرة بالشجن، يشعر الأيهم أنه عاجز عن السيطرّة على قلبه، إلى أن رآها مرّة أخرى، وهو في طريقه إلى صديقه العطار!

بدت له من بعيد وهي ممسكة بيد جدتها، تمشي بتؤدة، أشبه بطيف.. ثم لم يلبث هذا الطيف، أن تبدى عنها.. القَّن بشحمها ولحمها أمامه الآن!

نزع نفسه من هواجسه، وركض نحوها.. هي الأخرى ركضت نحوه أيضاً، تاركة يد جَدتها معلقة في هواء البلدة المشحون بالهواجس والظنون!

لم يقل شيئاً.. ولم تقل.. كانت نظراتهما قد حكت كل شيء. لا يدري كم من الوقت، وهما واقفان قبالة بعضهما؛ على ذلك النحو، إلى أن انتزعهما صوت جَدتها بحزم:

"هل سنظل واقفين أم نكمل طريقنا"

انتقل الأعتم بن أبي ليل الظلامي إلى الدّار الآخرة، قبل مئات السنوات، وكانت الحاضــرّة قد انتقلت في حياته، من "مراتع الفقرا" إلى "دبة النّاقة" فالأعتم الذي شــهد في حياته أيضــاً، ميلاد العاصــمة الأولى للإمبراطورية الوليدة، بين مفرق الأودية، حيث العتبات المقدســة.. قطعاً لم يكن يخطر على باله أبداً؛ أن عاصـمة المُلك، الذي لطالما حلم به وأسـلافه الغابرين، ســتظل تتنقل من مكانٍ إلى آخر، في عهود أحفاده من ســلاطين وملوك وأمراء، إلى أن ينتهي بها الأمر في خاتمة المطاف، إلى البلدة الجديدة..

"بلدة صانع الفخار" التي لم تحمل اسم مؤسسها المقدّس سرّه، السلطان التِرِحْ بن رّماد الأعتمّي؛ أحد أحفاده المتأخرين، ممن ســاروا على نهج من سبقهم، في تكرّيس الدولة مُلكاً عضوضاً!

وإذا كان التِرِحْ بكل نرجســيته ورّغبته الشــاذّة، في أن يكون إمتداداً للجغرافيا والتارّيخ! هو المؤسس الفعلي للبلدة الجديدّة، التي تفضل عليها الزنادقة، ومن ثم تبعهم الأهالي، فأطلقوا عليها اسم "بلدة صانع الفخار" اســتخفافا بكل الطوائف، التي تحدّرت من عقيدةِ المنتظر، فإن بعض النّاس بعد مقتل الترّح، كانوا يصــرون على الهمس، عندما يشــعرون أنهم بمنأى عن العســس، باسمها التليد "البلدة القديمّة" بدلاً عن "بلدة التِرِحْ!" أو أي اسم آخر من الأسماء التي أُطلقت عليها في غفلات التاريخ!

ومع ذلك، ما لبث الخيال الأسطوريّ للأهالي، أن أعطى هذه البلدة طابعها المميز، وعمل على إزاحة اسمها الرّسمي، الذي أطلقه عليها مؤسسها "التِرِحْ"، والاسم البديل الذي أُطلق عليها بعد موته مباشرّة!
وهكذا بين ليلةٍ وضحاها، اختفت كل الأسماء. وحل محلها اسماً بديلاً أخيراً، سيظل رّاسخاً إلى الأبد.. هو اسم بلدة "الخمار السلولي" فهو الاسم الذي شاع بين النّاس، في القبل الأربعة للبلاد الأسيرّة.

السلطان "التِرِحْ بن رّماد الأعتمّي" الذي اشتهر، بالاعتماد على القوادين واللصوص والعسس الجنكويز في تأمين حكمه، شيّد هذه البلدة؛ وفِي خاطره أن تكون مركز سلطته وسلطانه، إذ حولها لمعقل لجنده ورجال دولته.
وشيد في وسطها قصراً مهيباً، لا تزال آثارّه باقية، رّغم تهدّمه وإعادة بنائه أكثر من مرّة، بسبب الصرّاعات الداخلية المسلحة، ومرور السنوات الطوال، التي تركت آثارها على كل شيء!
فتحوّل القصر بمرور الوقت إلى مربط للخَيل، دأبَ المؤرخون من أحفادِ الأيهم، في توثيقهم لتارّيخ الإمبراطورية مترامية الأطراف؛ على زيارته. مسكونين بخيال جامح، يبعد عن وقائع ماضي المكان؛ آلاف الفراسخ من الحقائق!

ففي الحقيقة لم يأبهو كثيراً؛ لكتابة التاريخ كما حدث بالفعل، فألفوا تاريخاً موازياً؛ لا يتقاطع مع الوقائع والأحداث الحقيقية؛ التي جرت ولا يمت لها بصلة رّحم!

ففي التاريخ الحقيقي؛ لم يكن هناك شخص اسمه الأعتم أو صانع الفخار أو الخزين، ولم تحدث فتنة قُتل إثرها خلفاء المنتظر واحداً تلو الآخر. ولم يوجد على الإطلاق المدعو "المبير" أو العنابسة أو دكّام أو الغصين، أو أي شيء من هذا أو ذاك القبيل!

لقد ألف أحفاد الأيهم؛ الذي نُسب إلى الأعْتَم، رِوّاية بديعة؛ حشوها بالكثير من بنات أفكارهم؛ بعد أن حذفوا الوقائع الحقيقية؛ لميلاد ونشأة وحيّاة وممات البلاد الأسيرّة؛ داخل الإمبراطورية مترامية الأطراف.

هكذا إذن، اهتم السلطان التِرّحْ؛ بإنشاء الأبنية المخصصة لإدارة أعمال الدولة.. أي أعماله هو، وأحاط البلدة بقلاعٍ عملاقة، رّغبة في تحصينها من المتآمرين عليها.. أي أعدائه هو..

وهكذا أيضاً بدأ تشييد سور عظيم، يربط هذه القلاع التي تحيط بالبلدة، منذ لحظة تولّيه الحكم، خلفاً لوالده غير المأسوف على رّحيله، المقدّس سرّه التِرّحْ بن رماد بن الطرباق بن الأعتم! و.. ولكن لم يكتمل السّور، الذي يحميه من أعدائه، إلا في الْيَوْمَ الذي سبق مقتله!

فيما كان قد أوصـــى؛ وهو في النزع الأخير، أن يجعل لهذا السّـــور أربعة أبواب، بأسماءِ الجهات التي يفضي إليها كل باب.

فباب الصعيد، يُفضي إلى جنوبِ البلاد الأسيرّة، حيث ينبع النّهر؛ الذي يشُقها من أقصاها إلى أدناها، منحدراً إلى الجوار المرّيب! الذي يفضي إليه أيضـاً؛ باب الســافل.. المؤدي إلى شمال البلاد الأســيرّة.. وحيث تنحدر الأنهر إلى الجوار الطامع!

أما باب دار الريح، فيفضي إلى غرب البلاد، حيث تنشط الرّياح، لتبدد الأحلام، وتتكوم الكوابيس، أكواماً وارتالاً على حدود الجوار البدائي، حيث تغيب الشـمس، التي تشـرق عند الباب المفضـي إلى دار صـباح؛ منحدراً إلى الشـرق، عند الجبال التي تنبع منها رياح "الهَبَابَايْ" الكاسـرّة، فتُضرِج بضرَباتها القاسية البحر الصافي، وتصيبه بالعكر..

هذا البحر.. بحر مالح الملوّن كما يسـميه البعض؛ بمثابة جسـر يربط بلدة "صـــانع الفخار" و"مراتع الفقرا" و"دبة الناقة" الذين؛ حســـب أحفاد الأيهم؛ تربطهم بالبلادِ الأسيرّة في مغيبِ الشمس؛ أواصر قُربى.. وعلائق عميقة عبر التاريّخ.

وهكذا لم تمض سـوى فترة قصـيرّة، من الشـروع في بناء البلدة وسـورّها العظيم، حتى بدأت القبائل المشـرّدة و الشـاردة من الثارات، والضـالة بسبب الآثام والأوزار والخطايا، تتجَمَع لتُقيم وتُنشيء أحياءً باسمها، حول

ضفاف الوديان، التي تشق المدينة وتحاصرها، بعد أن هجر أغلبهم حرفته القديمّة، في الرّعي حيناً، والغزو والسلب والنهب حيناً آخر، وانصرف هنا في بلدة صانع الفخار، إلى غرس الأشجار المثمرة، وجني العسل وزراعة البساتين بالخضروات، وصيد الأرانب و"الجُقُور!".

وهكذا بعد مئاتِ السنوات؛ وعلى حين غرّة من دهشة الأهالي، أصبحت شجرّة النخيل الأزلية الرّاسخة، في رّمل الوادي، حيث كان ينهض سجن القلعة؛ في سالفِ العصر. محط أنظار الرّحالة الاسكافيين، الذين برعوا في ترقيع وإصلاح أحذية الفايكنج وجنود القرون الوسطى، التي وطأت أراضي العالم القديم، بكل جبروت وبطش!.. تمجيداً لفتوحاتهم وإنجازاتهم البازخة!

في محاولة مستميتة منهم، لسبر غور أسرار هذه الشجرّة المقدسة، التي لطالما أهتم دباغين الجلود من الأهالي المحليين، في سعيهم الحثيث لصناعة دلاء "وسُعون" وقِرَب الماء، إعطائها مزيج صبغة بشرية لا تخلو من الألوهية! بنسبتها لصانع الفخار، الذين زعموا انحدار نَسبه إلى الأعْتَم بن أبي ليل الظلامي، أو انحدار نسب الأعْتَم إليه! علهم يجدون تفسيراً للضياع الكبير، الذي يعيشه النّاس؛ في البلاد الأسيرّة!

في الحقيقة شجرّة النخيل المقدسة، ظلت عبر القرون؛ من أهم معالم البلدة القديمّة. إذ نهضـــت بشـــموخٍ مهيب على جرف "وادي الرُّحل" مجاورّة لضريح "صانع الفخار" الذي لم يره أحد على الإطلاق!

فعلى مر الزّمان؛ تناقل أهالي البلدة القديمّة الحكايات الأســـطورّية، التي ظلوا يَســـردونها، فيضـــيف إليها الرواة ويحذفون منها، ما شـــاءوا، خلال رّحلة الحكي الطويلة عبر الأزل!

بدى للأيْهَم أن صـديقه الوحيد؛ العطّار كبسـور النطاسـي، يعيش أيامه الأخيرة. فقد امتلأت بلدة صـانع الفخار، بالفتاوى التي تتهمه بالزندقة. بل لم تكن هناك في خمارّات البلدة؛ خاصة خمارّة "عشا البايتات السلولي" التي كان يرتادها عشـميق الأصـم وجماعته من الشـعراءِ الصـعاليك؛ للاسـتمتاع بالشـرب على أنغام العزف على القانون والناي، الذين بَرعتا فيهما، الحكامة" أم رشـوم" وضـرابة الدلوكة "أمخيان"، جاريتي الخمار السـلولي عشـا البايتات، وكذلك الخمارّة الملحقة بدير هند سـيرة، سـوى فتاوى الفقيه المتوحش "الله جابو"، التي رمّت صـديقه العطار كبسـور النطاسي بالزندقة.

كان كبسور النطاسي؛ قد فقد بصره مبكراً، بسبب مرض الجدري، فظل رّهين محبس العمّى؛ وكذا محبس بيته؛ الذي ألحق به محل العطارّة، ورّغم سعيه لاعتزال الناس، إلا أن موقع بيته في تخوم سوق الورّاقين، خلف محال العطارّة والجلود؛ وطبيعة مهنته الاجتماعية، كل ذلك لم يسـمح له بهذا الاعتزال!

فوجد نفسـه منغمسـاً مع زبائنه؛ في سـجالات وجدل، أفضـيا به للرّمي بالزندقة، من قبل الفقيه الله جابو، وشـرذمة أصـدقائه من الفقهاء المتوحشين!

كان كبسور الزنديق على حسب الله جابو؛ الذي أورد إفادته الأيهم، من أذكياء أهل زمانه، وكان كثير الأسفار، وافر الحرمة، صاحب مروءة وإيثار ورأفة بالمرضى، وكان واسع المعرفة، مكباً على الاشتغال بالطب، مليح التأليف.. ولكنه مظلم القلب!

ولذلك لم يرى حقيقة المنتظر ولا تعاليمه.. هذا العمّى الوجداني، كان سبباً كافياً للتحريض ضده وقتله!

فكبسور الزنديق، ظل يعتقد حتى الرّمق الأخير؛ أن العقل وحده كاف، لمعرفة الخير والشر، في حيّاة الإنسان، ولمعرفة أسرار الألوهية، ولتدبير أمور المعاش وطلب العلوم والصنائع؛ والأمر كذلك ليست؛ هناك حاجة إلى منتظر لهداية النّاس؛ إلى هذا كله؟!

وبطبيعة الحال هذه الأفكار الكبسورية، خلقت نوعاً من البلبلة؛ تعدت زبائنه من رواد محل العطارّة؛ إلى أهالي البلدة القديمّة؛ ولم تلبث أن استشرت، استشراء النّار في الهشيم، لتصل ما وراء البحر الملوّن، بصعيد النّهر وسافله ودار الريح!

إذ أصبح حديث المجالس، وانقسم النّاس حول أفكار كبسور؛ منهم من يرى أن الكتب العلمية فيها فائدة للناس، في معاشهم وأحوال دنياهم، بالتالي أنفع للناس؛ من تعاليم هؤلاء الفقهاء المتوحشين، الذين لا يملكون سوى فتاوى، لا تسمن ولا تغني عن جوع!

وكبســـور في الحقيقة؛ كان عالماً بارعاً في الكيمياء، حتى أنه يعتبر أول من اســتخدمها، مســتفيداً منها في عطارّته، ولذلك لقبه أهالي البلدة القديمّة بـ"أبو الكيمياء".

ولكن أنكر البعض وجوده أصـــلاً. إذ يرى الفقيه المتوحش الله جابو في مَخطوطاته:

"أنه شـــخص مجهول.. لا يُعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم، ولا بين أهل الدين، ولو أثبتنا وجوده، فإنما نثبت ساحراً من كبار السحرّة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسيمياء والسحر والطلسمات"

ورغم إنكار هذا الفقيه المتوحش لوجوده، إلا أن ذلك لم يلغي حقيقة أن كبسـور النطاسـي، كان من أبرز الفلاسـفة في تاريخ البلاد الأسـيرّة، وقد ذاع صيته في علوم عدة. وبسبب اهتمامه بالمنطق، لقبه أنصاره من أهالي البلاد الأسيرّة بـ"المعلم" بين ألقاب عديدة حصل عليها بجدارة!

ومما لم يغفله الأيهم، أن كبســور كان نباتياً؛ لا يأكل لحوم الحيوانات. فقد تأثر في ذلك بالفلســفات الهندية. وكثيراً ما اســتخدم تعبير "إيلام الحيوانات" لينهي النّاس عن أكل لحومها، وكان هذا التعبير وقتها شـــائعاً في الثقافة الهندية القديمة.

وقد كان كبسور فيما يبدو شخصية قلقة، لا يسكن إلى الرأي السائد. ظل الشك منهجه؛ في الوصول إلى قناعاته؛ عن أي شيء مادي أو روحي.

والحال هذه، أجمع الفقهاء المتوحشون أن أهم ما دعا إليه هو "إعمال العقل وتغليبه على النقل" وقد اصطدم ذلك بكل ما هو متوارث. إذ ليس ثمّة من شيء مقدس بالنسبة له، فقد كان الرجل نسيج وحده، ووجب تفكيره وقتله!

على الجانب الآخر؛ رأى العطار النطاسي حسب ما نُسب إليه، من قِبلِ الفقهاء المتوحشين، أن التعاليم المقدّسة أورثت للناس التباغض والعداوة، وأنه اتهم المنتظر بالتسبب في الحرب، وإباحة استرقاق الإنسان:

"إن الشرائع ألقت بيننا أحقاداً، وأورثتنا أفانين العداوات. وهل أبيحت نساء البلاد الأسيرة عن عرض آل المنتظر والأعْتَم، إلا بأحكامِ المقدس الماكرة".

وعندما أدرك أن لا محالة القوم قاتِلوه، أوصى الأيهَم؛ أن يكتب على شاهد قبره:

"هذا ما جناه أبي عليّ * وما جنيت على أحد".

ومما لا شك فيه؛ أن الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين؛ الذين تفخر بهم البلاد الأسـيرّة، قد تعرضـوا في زمانهم؛ أو في زمن لاحق للتكفير، والعنف والتنكيل وإهدار الدّم والقتل.

ويُنسب إلى الفقيه المتوحش في مخطوطته التي اشتهرت بتهَافتها، قوله:

"إن العطار يزعم أن الفيلسـوف أكمل من المنتظر، وهذا سـبب كافٍ لتكفيرِه وإباحة دّمه".

نتيجة هذا الرأي، وصـفه الفقيه المتوحش ب"الملحد الزنديق، و رأس ملاحدة الملة" وعضـد أصـدقائه الفقهاء المتوحشـين الآخرين، رأيه بأن أطلقوا على العطار النطاسي لقب "إمام الملحدين الكافرين".

مع أن الرجل كل ما كان عليه هو، أنه مجرد نطاسـي برَع في علوم كثيرّة؛ كالكيمياء والفلسفة والمنطق والطب والرياضيات والفلك، وقد كتب فيها جميعاً، ما لا يقل عن مائتين كتاب، أُحرقها دكّام كلها قُبيل صلبه وإعدامه محروقاً، على شـجرّة لعوت سـيئة الرّائحة؛ لكن حملت لبابها ردود الفقهاء المتوحشـين عليه؛ التي كشـفت أن الرجل دون منازع، هو المؤسـس الفعلي للفلسفة في البلاد الأسيرّة.

وفي الواقع حُظي العطار في بدء حياته العلمية، بعناية من بعض الأمراء أحفاد إبن عم المنتظر، لكنه افتقد هذه العناية بموتهم؛ وبتولي التِرّحْ لزمام

الأمر بدأ الفقهاء يضطهدونه وينتقدونه نقداً قاسياً، لكونه رأى أن العقل هو جوهر التقرب من رب المنتظر.

وبخاصة الفقيه المتوحش الله جابو، الذي رأى منذ البداية؛ أن العطار أخطأ في الاعتقاد بأن الكون خالد، وأن الأجساد لا تبعث، وأن رب المنتظر يعلم المسلمات المجردة وحسب، دوناً عن الأمور الخاصة.

وهكذا؛ كما يحدث للفلاسفة، كُفر العطار نتيجة لفكرِه، واعتبره فقهاء الغابة والصحراء "منجماً ضالاً متهماً في دينه" رغم أنه في الحقيقة، خلافاً لما أشيع عنه؛ لم يقل سوى أن التفكير التحليلي شرط، لتفسير تعاليم المنتظر. خلاف ما هو متداول من التفسير.

كما اعتقد العطار بقدم العالم و أزليته. ولذلك اعتبره "الجربندية" من الفقهاء المتوحشين فيلسوفاً "ضالاً ملحداً" يعتقد في أن الأنبياء يخيلون للناس، خلاف الواقع عقيدة جازمة.

إلى جانب أنه من المؤكد، حاول التوفيق بين تعاليم المنتظر وفلسفة أرسطو، وموافقته هذه وتعظيمه أرسطو وشيعته "أعظم من موافقة أسلافه العطارين والنطاسة" وأضافوا أنه "انتصر للفلاسفة الملاحدة، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، وإلحَادياته مشهورّة".

وسواء كان كذلك صحيحاً أو لم يكن، الحقيقة التي خلدها تارّيخ البلاد الأسيرّة، أن الرجل من أعظم علماء الإنسانية، رُغم أنف التسفيه الذي

وجده، بعدما اعتبره فقهاء الشـــر ملحداً خارجاً عن الملة، كأمثَالهِ من الفلاسفةِ البؤساء!

الفقيه الجَربندي المتوحش كعادته، لم يكتف بتكفير العطار، بل كفر الأيهم أيضـــاً؛ وقال إنه "من الملاحدة الخارجين عن تعاليم المنتظر، بحكم أنه من أقران العطار، علماً وســفهاً والحاداً وضــلالاً، وكغيره من الغاوين؛ الذين يتبعون الفلاسفة، ويقولون بقدم العالم وغيره من الكفريات".

وبطبيعةِ الحال؛ لم ينجو عشــميق وجماعته من الشــعراء الصــعاليك، من حملات الله جابو الضارية!

ما كان يشـــغل بال الأيهم في هذه اللحظة، ليس مخاوفه التي لا تنطفئ؛ على صــديق عمره العطار كبســور النطاســي، وإنما طيف تلك الجارية أم عيون، التي منذ وقعت عيناه على عينيها، حتى جن جنونه!

في هـذه اللحظـة بالـذات، كـان طيف أم عيون يلاحقـه مقترناً بآلاف الذّكريات والصور، التي لم يكن العطار أولها أو آخرها، فجميعهم يتسللون الآن، يحيطون به في عزلته البديعة..

الشـــعراء الصـــعاليك ضـــحايا تقلبات الدهر، والمعارف الذين قُتلوا في الصرّاعات على السلطة، والنسـاء اللواتي عبرن على فضـاء حياته، كمطر "السواري". ثم ما لبثن أن تلاشين كانصرام "الرُّشاش" أو الهبايب الماكرّة!

يرى الآن طيوفهم وطيوفهن جميعاً، في فضـــاء ذاكرتـه.. يرى "الكيـك النوايبو كرك"، "أبو الدرق الأسـد المكربت"، "أب عصـاً بولاد"، "أسـد الكداد الزام"، "أب رِسوّة البكر" و"ود اب كريق"..

أقرانه؛ يرى طيوفهم الآن متوشحين بدمائهم، يخطرون في عليائهم، ك"دود الأربعين أب زنود"، كأن لم تتغشاهم سكرّة موت!

ويرى أولئك الذين عرفهم، فأكلَتهم السـلطة كما تأكل القطة صـغارها، كأنهم يجالسُـونه الآن؛ كما اعتادوا في حيّاتهم، يتبادلون معه كؤوس الخمر، يحكون عن صراعِهم المميت؛ داخل قصور السلطنة..

"مقنع الكاشفات"، "الأسد النتر"، "جراب العيش"، "تمساح اب كَبلو"، "عقد الحديد"، "تمساح العشارّي"، "سيد مَحَكَر الديوان"، "عَشميق حبل الوجَج" و"ضَباح الرّبايب"..

يراهم جميعاً كأنهم لم يموتوا؛ يخطرون على ذاكرته، يقضون مضجعها. ويصيبونه بالأرق الزؤام!

كيف رحلوا جميعهم في لحظات متشابهة؛ كأنها لحظة واحدة؛ وشقيقاتها التوائم، في تلك اللحظة؛ التي زحفت فيها الجيوش تلو الجيوش، تستهدف مُلك بني الأعْتَم، بعد أن جمعوا من أنصارِهم المنتشرين في البلاد الأسيرّة، آلافاً تفوق تعداد سكان البلدة القديمّة.

ظلوا يعدون لهذه اللحظة لعقود، يستقطبون الطامحين؛ ويجندون سراً العامة في كل حدب وصوب ونحلة وملة. وعندما انعقد غبار جيوشهم؛ في تلك الظهيرة؛ على أبواب البلدة القديمّة؛ حجب الشمس. واحتقن فضاء الحاضرة بأحاسيس؛ شتى أهونها الخوف!

لم يكن السلطان المقدّس سرّه التِرّحْ الأعتمّي. آخر سلاطين بني الأعتم، يملك ما يُعادل ربع هذا الجيش؛ الذي اقترب من أبواب المدينة، فاستشعر لحظتها أن تلك اللحظات؛ هي آخر عهد بني الأعْتَم بالسلطة والسلطان، فَداخَله الخوف عليهم وعلى عروضهم، فقد نكل أسلافه وقتلوا واغتصبوا

من أحفاد أبناء عّم المنتظر، ما لا يُعد أو يُحصـــى، حتى كادوا يفنوهم عن آخرهم. ولابد أنهم الآن سَيثأرون، لكل جرائم وجرائر التاريّخ.

وهكذا قرّر في هذه اللحظة الفارقة، هجران البلاد الأســيرة؛ واللجوء إلى بلادٍ دونها ودون أحفاد صانعي الفخار، غابات وجبال وصحاري، وبحار، من يحتمّي بها لا يدري، أهو يحتمّي منها أو إليها!

وعلى عجل جمع الحَوايا أكداســاً؛ وجاء بعشــراتِ الجمال؛ فدخلت عليه جاريته المغنية "النِعيسانة"، أشهر مغنيات عصرها؛ وقالت تحرضه:

"المقدس مولاي..

ماصع الضَمر بالرق * المدفع الذّخيرته تبق

شمر يا ولد لنحاسك دق* قدر الله بيطيح

حتى إن بقيت في حُق"

عندئذ رأى المقدّس سرّه نفسه صغيراً جداً، وحز في نفسه أن خطر على باله الهرب، فنظر إليها وقال:

"قتلتيني يا خادم يا بنت الغَلفاء"

وهكذا دفعته كلمات النعيســانة، إلى المضــي قدماً لمواجهة قدرّه، ولقاء حتفه المحتوم برضاء تام.

فأمر بحرق الحوايا ومعدات الســفر، وضــرب النّحاس إعلاناً عن قرار المواجهة.

تحصـن منتظراً جيوش صـانعي الفخار، التي كانت تقترب حثيثاً حثيثاً، إلى أن وصلت شفة الوادي، حيث تمد نخلة صانع الفخار جذورها، تعبر باحة السـجن.. حيث زرعت هناك قبل مئات السـنوات، لتمتد جسـراً بين الضفتين!

وهنا في هذا المكان بالذات؛ عَركسـت الخيل، وكتح العجاج رئة النخلة، فعشـرقت حلوق الأهالي، وتبين للمغنية النعيسـانة والحكامة أم رشـوم، وضـاربة الدلوكة البارعة أخيان، أنها القيامة قد قامت ولا شـك، دون نفخ في صـور ولا شـيء، فقط صـوت الدلوكة والنحاس؛ ووقع حوافر الخيل، وصرخات المحاربين وصليل السيوف، الذي زعزع القلوب وعقد الرُوح في الحناجر!

امتزج العجاج الذي غطى سماء البلدة القديمّة، التي صار اسمها بلدة صانع الفخار، بطيوف "الحِديات" والصقور، التي ترفرف في سماء المعركة.

كان كِلا الطرفين قد التحما يُقاتلان كتماسـيحِ "الكَواني!" و كان قائد جيش صَانع الفخار يَصول ويَجول وهو يهتف:

"أنا الدابي العشـاري، دقر الحرايق، التلب، الملثم بحديدو.. انا الجبل الما بنطلع.. تمساح الدّميرة"

فتطايرت الأوصـال وجرت الدماء جداول، تروي عروق النخلة، فيما فرائص البلاد الأسيرّة وفرائِص النخلة ترتعدان!

كان جيش المقدّس سـرّه؛ أيضـاً يقاتل بضـراوة دافعها اليأس. فقتل من جيش صـانع الفخار الآلاف المؤلفة.. وقبل أن يُقتلوا عن بكرةِ أبيهم، ويُعلق رأس المقدّس سـرّه على أبوابِ المدينة لشـهور، إلى أن تعفن وتجرد، وأصـبح قرعة فارغة؛ طاب للسـلطان الجديد دكّام حفيد "المُبْيِر" الكبير، أن يسـتخدمها إناء لمزة شـرابه، وموضـوعاً لنوادرِه مع ندمائه الشـعراء الصـعاليك، الذين يتوافدون إلى مجلسـه، يمدحونه ويمدحون سـلالته، بما ليس فيهما، ويمدحون نسله الذي لم يولد بعد، ويعظمون من نسبه المزعوم للمنتظر!

فيما كان الأيهم؛ يرتاد سوق الوراقين كعادته، لتفقد المخطوطات الجديدة، وعلى غير عادته، أخذ هذه المرّة، يلقي نظرات متلصصة حوله، عله يرى امرأة تشبه عيونها عيني تلك الجارية، التي خرجت له في مخطوطة الحكايات الطريفة النادرة، التي قرأها مؤخراً.

ثم لم يلبث أن رآها عند صديقه العطار "كبسور" النطاسي.. في الليلة الأولى؛ التي تشكّلت فيها على رقعة المخطوطة، شعر بأنه هو ليس هو! وبدءً من تلك الليلة بعد العشاء، أخذ يُغلق على نفسه حجرته الصغيرة، ويقرأ في المخطوطة نفسها، فيما طيفها يرتسم على رقعةِ الجلد؛ بعينيها الساحرتين.

كانت حجرته التي خصصها للمخطوطات، بمرور الوقت قد امتلأت بالمخطوطات النادرة، التي تغوص في تاريخ بني الأعْتم وجواريهم. وكما اعتاد لم يصارح أحداً بأمر أم عيون، التي خرجت من المخطوطة، ثم رآها في اليوم التالي عياناً بياناً عند كبسور!

فالأيْهم لم يكن يثق بأحد! سوى صديقه العطار؛ وأصدقائه الآخرين القلائل. ومع ذلك ليس بإمكان أحد أن يحس به، كما يحس هو بنفسه!

في تلك الليلة وبعد أن أغلق على مخطوطاته باب الحجرة بعناية، حدث شيء غريب في أعماقه.. وهو يقرأ "تلك المخطوطة"..

وفي اليوم التالي؛ وهو في طريقه إلى سوق الورّاقين، لم يمشي بخطواته المعتادة ذاتها، وهو منكس الرأس؛ كما كان يفعل عادةً، بعد أن سكنت داخله المخاوف التي ظلت تتنفسها البلدة القديمّة..

مع أن الأيهم لم يكن من ذلك النّوع؛ الذي يميل للسجال والجدل، بل كان يفضل الصمت؛ حتى عندما كان يرى انحرافاً أو خطأً؛ لم يكن يفتح فمه بالكلام..

ربما بسبب الخوف؛ الذي زرعه فيه قائد العسس دكام، أو تعوداً؛ على تقبل كل شيء دون احتجاج. أما الآن، يشعر بنفسه قد تغير، أغلقت عليه أم عيون جفنيها؛ وعندما قفز كدمعة يتيمة؛ تغير!

في طريقه إلى سوق العطارّين، منحدراً من سوق الشعراء، عرج الأيهم على البيطار، ثم انعطف إلى صديقه العطار كبسور؛ في محله المنزوي؛ واشترى منه أعشاباً متنوعة لأغراض مختلفة. ثم امتطى فرسه عائداً إلى داره.

كان الأيهم ستينياً بدينا قصيراً، يكاد يكون نسخة مطابقة؛ لجده الأعْتم ابن أبي ليل الظلامي الأكبر، كما وصفته المخطوطات العائلية.

ربما ما ظل مؤخراً يشغل بال الأيهم، أنه مضت سنوات ليست قليلة؛ على زواجه من ابنة عمه "المتن" دون أن يحظى منها؛ أو من جواريه؛ بولد

يحمل اسمه، وحتى الآن؛ لا يدري.. هل ثمّة عقمٌ أصـــابه؛ أم أن كل من جامعهن من جواري وزوجات، تصادف أنهن عقيمات!

بدى واضـــحاً من الانحناءة الخفيفة لظهره؛ ما تنوء به أكتافه من هموم، فمع تقدم السن يبدأ الإنسان في التفكير؛ في الأثر الذي يتركه وراءه، بعد أن يغيب عن الحيّاة، وقد تمثل له في الآونة الأخيرة، أن هذا الأثر؛ هو إبن يحمل اسمه!

ربما لم يكن هذا هو الهم الوحيد، الذي يُثقل على كاهله.. ربما أن تفكيره في من يرث كل هذه المخطوطات، حتى لو لم يكن من آل الأعتم، هو ما كان يؤرقه حقاً؛ أكثر من أي أمر آخر!

لم يعتاد الأيهم؛ على رّهن أي شـــيء يخصـــه للمجهول، فكل شـــى عنده مخطط له سلفاً؛ وموثوق به..

لا يرهن قلبه حتى لصـــديقه المقرّب الوحيد الذي يثق به، العطّار كبســـور النطاســـي، ففي ظنه أن كل النّاس؛ مهماً كانت درجة قربهم أو قرابتهم منه، هم بالنسبة له غرباء، وهو لا يخشى شيئاً بقدر ما يخشى الغرباء!

لذا لم يكن ثمّة ما يؤرقه في حياته الماضية، فقد عاشـها؛ دون أن يخوض في شـؤونه الخاصـة مع من يسـميهم الغرباء، فمهماً بدى النّاس لطفاء، غالباً يأكلون ســـيرتك؛ متى أعطيتهم ظهرك ومضـــيت!.. فهم يتوَعكون؛ ولا

يشعرون بالتحسن، وأنهم أفضل من الآخرين، ما لم يسلقوا هؤلاء الآخرين بألسنتهم الموبؤة!

لذلك أنفق الأيهم حياته في حذر دائم؛ طبعه بطابعه كرجل متوحد، لا يعلم عنه قومه الكثير؛ سوى أنه آخر أحفاد الأعْتم الأكبر. وربما هذا التوحد والميل إلى العزلة، هو ما قرّبه من العطّار كبسور النطاسي، الذي كان يشبهه كثيراً!

في شبابه الباكر، لم يتزوج ولم يَلد؛ ولم يأبه لما يشغل بال النّاس؛ من اكتناز الثروات، فقد اكتفى بعالمه الخاص المحدود؛ والمغلق على جمع المخطوطات. واظب الأيهم على روتين محدد لا يغيرّه، فعندما يصل إلى داره عند انقضاء النّهار، يدخل إلى غرفته الصغيرّة، التي لم يعد مؤخراً؛ يلتقي فيها بنفسه فقط، بل وبأم عيون أيضاً، بين رقع المخطوطات التي تراكمت في كل ركن منها!

كانت قرقودة جارية زوجته "المتن" وجاريتيه الشول والزالفة ،منشغلات بأعمال المنزل؛ عندما دخل؛ وأغلق على نفسه غرفة المخطوطات.

ولم يكن قد لاحظ غياب المتن.. فقد كان باله لا يزال مشغولاً؛ بتلك الفتاة التي رآها عند صديقه العطار، والتي لم يكن قد لمح سوى عينيها، اللتان تلفتان النظر أكثر من قدها الرّشيق، الذي تشدّه ماكمةً بديعة إلى

الوراء، كلما تحركت أو مالت، فيرتج صدرها النافر ويشدها للأمام، كأنها تمشي على كثبان رّمل..

عيناها كانتا مبتسمتان؛ في وداعة لم يسبق أن رأى مثلها، وتكشفان عن جمال سرّي؛ يختبئ تحت هذه العباءة؛ لم يرى أحد مثله.. ومُنذها أصبح باله مشغولاً بصاحبة العينين الوديعتان؛ أم عيون!

على العشاء كان صامتاً، فلم يتبادل والمتن حرفاً واحداً. بعد العشاء لم تكن به رّغبة في النّوم. فحمل سنوات عمره الستين؛ وأغلق على نفسه باب غرفة المخطوطات.

رقد في الفراش الوحيد على امتداد الجدار، وأخذ يقرأ على ضوء المشعل ومصابيح الزيت الثلاثة، التي أحالت ليل الغرفة إلى صباح ساطع، فيما كانت "الزالفة" قد أعدت له قدحًا من النبيذ!

قرأ للحظات. ثم انتابه ضجر لم يعتده؛ ربما لأنه كان مشغول الفكر. نهض، طاف بأرجاء الدار وشرب مزيداً من النبيذ. وفي النهاية، قرر أن يذهب لينام.

وعندئذ تذكر مخطوطاً كان قد أحضره منذ أيام؛ ونسى أن يطلع عليه؛ فتناوله وقد خطر له أن يقتل به بعض الوقت.

أمسك بالمخطوط ولم يتركه إلا بعد أن شارف الليل على الانتصاف. أجهز عليه كله. نسى أو تناسى الهموم التي تشغله؛ قرأ كل الحكايات

والأخبار التي انطوى عليها المخطوط؛ فقد كانت جميعها عن الجارية أم عيون؛ وفي النهاية، أعاد المخطوط إلى موضعه وذهب لينام.

لم يدلف إلى غرفة نومه مع المتن. قصد غرفة نوم الشول؛ التي كانت قد رقدت على بطنها وقد انحسر ثوبها عن ساقيها، استلقى إلى جوارها؛ ثم لم يلبث أن نام.

حلم تلك الليلة حُلماً. بدى له غريباً. إذ رأى نفسه في "مراتع الفقرا" والأعْتم الأكبر شاباً فتياً؛ لم يفقد عينه بعد، وكان يقف على رأس القوز؛ المطل على داره، التي تشرف على سوق الشعراء، فيما هو على صهوة حصان، يركض تجاه الأعْتم الأكبر..

كان الفرس يركض بسرعة غريبة، فما لبث أن تعثر، ليجد نفسه قد سقط على ظهر الشول، التي استيقظت. وهي تظن أن سيدها قد اشتاق إلى بعض المداعبات؛ التي كفّا عنها منذ وقت طويل. وإذ رأته غارقاً في سباته؛ استدارت على الجانب الآخر؛ وعاودت نومها.

يظن الأيهم أن ما حدث له من تغيير، بذرته تعود إلى هذه اللحظة بالذات.. أمر ما حدث له؛ لا يدري كنهه.. قد تغير..

عندما صحى من أحلامه، التي احتقنت بالأعتم وعيني الجارية الوديعتين؛ مضى متعجلاً إلى غرفة المخطوطات؛ وأخذ يكتب لها على رقعة جلد، عن كل ما أحسه، لحظة رآها عند صديقه العطار الأعمّى!

أكثر ما كان يكرهه الأيهم، أن يجد نفسه مضطراً لزيارّة دكّام، فمثلما كان لا يَســـتلطفه؛ لم يكن دكّام كذلك يكن له الود؛ رغم محاولته إظهار غير ذلك!

كان دائماً يشـــعر بالارتياب في نظراته، التي تخفي أكثر مما تُظهر. والتي دائماً يشعر بها تضغط عليه، حتى يأتي تصرفاً مخالفاً، يوغر صدره ضده، ويمنحه الفرصــة لإعلان عدوانه وحربه، التي لا شــك أن الأيهم ســيكون خاسراً فيها!

فهو يعلم أن دكّام يبحث عن سبب لاتهامه بالزندقة، وربما يضطر يوماً ما، إذا لم يعثر على هذا الســبب، أن يلفق له أي شــيء، يســتل به عنقه من على كتفيه!

فدكّام يكرهه بسبب علاقته الوطيدة بالعطار كبسور النطاسي، الذي بدأ الفقيه الله جابو مؤخراً، يشــن ضــده حملة شــعواء، حملتها خطبه المحتقنة بالاتهامات القاتلة، التي لم تحرك في كبســـور ســـاكناً، رغم إدراكه أن هذا الفقيه المختل، لو استمر في حملته ضده، لا محالة أن دكّام سيتدخل ليضع حداً حاسماً لحيّاة العطار البائســة، وهو ما يســعى إليه الله جابو حثيثاً، بل ويصرح به في المنابر بكثافة؛ متوسلاً ولي الأمر.. يقصد القائد دكام؛ لقتل هذا الكافر وإراحة أمة المنتظر.. أي أهالي البلدة القديمّة، من هرطقاته وفجوره!

في تلك الظهيرة، دلف عليه في ديوان العسس، بعد أن استدعاه بشكل مفاجئ لأمرٍ يجهله، وما أن رآه دكّام، حتى تصنع الانشغال فاهمله كأنه غير موجود.. وانصرف منهمكاً في حديث لا قيمّة له مع أحد عسسه، الذي بدا شاباً رخواً، رغم نحافته البائنة، ثم استشاط غضباً على نحو مباغت، وضرب المنضدة التي أمامه بقبضته بشدة، حتى أن قدح النبيذ الذي كان أمامه؛ دُلقَ ولَطّخَ المخطوطة، التي كان الأيهم يحملها تحت إبطه عندما دخل، قبل أن يضعها بعناية على المنضدة، لحظة أومأ له دكام بالدخول ثم تجاهله.

أُسقط في يد الأيهم الذي ارتبك. لم يكن يتوقع ذلك قط. فيما لاحظ العسسي النحيف الرّخو، الذي كان يتلقى التقريع من دكّام، ما طرأ عليه من تغيّر، فابتسم ابتسامة ماكرة!

وخرج فيما بقيّ هو يتلقى أسئلة دكام التي انهالت عليه كالمطر، كان واضحا انه يحقق معه عن العطار النطاسي والشعراء الصعاليك المقربين منه!

"أنهم ليسوا أصدقائه فأنا أعرفه جيداً"

"لماذا ينفقون معه أوقاتاً طويلة؟"

"ربما لأنهم مولعين بالشعر"

"انه عطار وليس شاعر"

"لكنه لغوي ويعرف أسرار اللغة"

كان واضحاً أن دكّام يبحث عن خيط يربطهم جميعاً بالزندقة.. بأسئلته المستريبة ونظراته المتشككة في كل حرف، والقسوّة التي نسجت ملامح وجهه، الذي بدا أشبه بسحنة عنكبوت عملاق.

لم تتوقف أسئلته حتى مغيب الشمس، فيما كان الأيهم قد نال منه التعب وشعر بإعياء مميت هد حيله، حتى بات وكأنه قلعة قديمّة متداعية..

عندما نهض ليغادر، كان العرق الغزير قد بلل ثيابه. فشعر بنوع غريب من البرد يعصف بكيانه كله. مشى نحو المخرج بخطى متعثرة، فيما نظرات دكام تثقب ظهره المبتل، تبعث فيه تيار رعدة قارسة تسري من عروقه إلى جسمه كله!

سـأل صـديقه العطار عنها، فأرشـده إلى الخمارّة الملحقة بدير هند. فيما لاحظت المتن، أنه مؤخراً؛ أخذ يعتني بنفسه كثيراً. اشترى عباءة من الحرير الفارســـي، وحذاءً رومياً جديداً، وأخذ يحلق شـــعره دون أن يفريه كما أعتاد..

قالت في نفسها:

"تبدل حال الأيهم"..

نعم؛ تبدل حاله. قلقت. شـــكّت في أن تكون جارية أخرى؛ قد دخلت حياته!.. لكن مالبث بالها أن هدأ، وقد لمســـت رقته البالغة معها. فاعتقدت أن حبه النائم لها قد صحى!..

مسح الأيهم خمارّة عشا البايتات السلولي، التي كان يتردد عليها من آن لآخر بعينيه. رأى شـلة الشـعراء الصـعاليك، يتوسـطهم كالعادة عشـميق الأصم، يجلسون في المكان نفسه؛ الذي اعتاد رؤيتهم يتنادمون فيه، كلما قادته قدماه إلى هنا!

كانوا يتضاحكون؛ وهم يطلقون نكاتهم البذيئة نفسها، وعلى غير عادتهم بدوا غير مهتمين لعزف الحكامة أم رشـوم على القانون، ولا لأوجاع الناي التي خرجت من دلوكة أُمخيان!

وفجأةً رآها تقدل في مشيتها، عند مدخل الخمارّة!..

لحظتئذ شعر؛ كأن قبضة جبارة للغاية أمسكت به، واستولت على كيانه، ثم أطلقته، وقد انفتحت بداخله قوّة غريبة، بعد أن أرغمته تلك القوّة القاهرة، التي استحوذت عليه، أن يترك كل شيء وينصرف..

لكنها كانت تقترب بعينيها الساحرتين. قدها الرّشيق. مأكمتها البديعة. صدرها النافر!.. كانت قد اقتربت كثيراً!

خطر له أن يستند على أي شيء. يهدئ قلبه الذي كان يدق بسرعة فائقة؛ وبقوّة. تستمد جبروتها من حركة أصابع أم رشوم على أوتار القانون، وهي تتسلل إلى كبد ناي أُمخيان، فتعصره داخله، هو الأيهم المقتول وجداً!

سلّمت. فغرقت الخمارّة في صمت رهيب!.. أو ربما انعزل هو بكيانه كله، في شرنقة تضمهما وحدهما، فلم يعد يسمع أصوات الشعراء الصعاليك أو عزف أم رشوم وأُمخيان، أو صوت عشا البايتات؛ الذي رد على سلامها بهمته المعتادة.

لم يعد لأوجاع وهموم الأيهم ومخاوفه وجود. لحظتئذ؛ اختفت من تاريخ حياته، زوجته الكئيبة المتن، والجاريات الممتلئات البائسات، اللواتي لم يعد يشغلهن شيء، سوى الطبخ ونظافة الدار منذ سنوات، وصديقه العطار الأعمى، والقائد دكّام.. وحتى رأسه المنكس وانحناءة ظهره، والسنوات

الستين التي تثقل كاهله، ومعدته المضطربة التي أعيت العشابين، كل ذلك لم يعد له وجود!

أفاق على صوت الخمار السلولي وهو يقول:

"عشا البايتات"

كأن اللعين يتودد إليها دون حياء. ابتسمت في ود:

"أعلم، لم أنسى اسمك بعد"

ثم استطردت:

"ناديت عليك من الخارج، لكن لا أحد يرد"

فاطرق في حياء مصطنع:

"أنا في أشد الأسف يا سيدتي "القن"، فالضجيج هنا لا يدعنا نسمع شيئاً من الخارج. سأوافيك حالاً"

وأشار لها أن تخرج، وتبعها بخطىً مرتبكة إلى خارج الخمارّة..

حوّل الأيهم عينيه منهما، ونظر إلى عشـــميق وشـــعرائه البؤســـاء، لم يكن بإمكانه أن يقول كلمة.. فجأة، وبحركة مباغتة، وقد تلبسته قوّة شاب في مقتبل العمر، قفز قفزة واحدة تخطت الخمار السلولي فانتصب جوارها!

وفي خفة الفهد وضـــع رقعة الجلد على كفها، وانفلت مســـرعاً.. خرج..

ومن بعيد كان صوت القانون والناي؛ ينتهيان إلى مسامعه، ريانان بالحنين واللوعة والأشواق!

كان خاطر الأميرة "القن" لا يزال منشـغلاً على حبيبها "وّشـم الدّم" ابن جزار القصـر، فيما جَدتها التي أثقلت نوائب الدهر كاهلها، تمشـي بتؤدة؛ وهي تستند على ذراعيها الفتيين!

تسـاءلت ما إذا كان الزّمان سيجمعهما مرّة أخرى، وتسـتند على ذراعيه، وهو يتلقاها من النافذة خلسـة من العيون، أم أن ذاك زمان مضـى وانقضى.

وفيما كانت خطواتهما الوئيدة تقترب من خمارّة عشـا البايتات، آخر أحفاد الخمار السـلولي، الذي رآهما من بعيد، فتبين فيهما امرأتان منهكتان، تتقدمان تجاه خمارّته ببطء وحذر.

بدت العجوز طاعنة في السن، تتوكأ على عصا رفيعة معقوفة في ممسكها، وتستند بالذراع الأخرى، على المرأة الشابة التي بصحبتها.

وفيما كانت العجوز متدثرة بعباءة سـوداء حائلة اللّون، عبث بها الزّمن ونوائبه طويلاً، كانت أيضا قد غطت رأسها بخمار، بدى أقدم من العباءة التي التفت بها.

وبدت المرأة الشـابة، في قامَتها المعتدلة داخل عباءتها، ذات فتوة ضـارية وجسـد كاسـر مفترس. ولم يكن يظهر من وجهها المنقب؛ سـوى عينان سـاحرتان وديعتان، رغم ما سـكنهما من حزن وأسـى ووحشـة، بدوا من أشد أنواع مشاعر الغربة غرابة!

كانتا بخطواتهما الوئيدة قد أقبلتا عليه، فشعر في قلبه بوخز خاطف كوخز الإبر، وارتعدت فرائصه وقد أحس أن خلفهما حتماً ولابد قصة حزينة!

لكنه ما لبث أن قال لنفسه:

"لكل الناس قصة حزينة أو أكثر!"

رفعت الفتاة المنقبة وجهها، تنظر إلى وجه المرأة العجوز، وحاولت أن تتكلم، لكنها توقفت عن إكمال عبارتها التي استهلتها ب:

"أمي..."..

فيما نظرت العجوز بغتة، إلى وجه عشا البايتات، وقالت توجه كلامها له في الآن نفسه، الذي قطعت فيه حديث حفيدتها:

"هل لديك مكان نرتاح فيه؟"

فرد مستهجناً عدم بدئهما بالسلام:

"وعليكم السلام"

أطرقت الفتاة بخجل، فيما ابتسمت العجوز في حزن بائن:

"اعذرنا يا بني. فمن لا يغشى السلام حياته. ينسى السلام على الناس"

حاول عشا البايتات، تجاهل الفضول الذي تآكله، وهو يتساءل في قرّارة نفسه، عن قصة هذه العجوز وحفيدتها، وقال:

"لا بأس عليكما، تفضلا"

وتقدم يقودهما، إلى غرفة خالية خلف الخمارّة. وهو يشير إليها:

"هنا أنتما بمأمن، فكما تريان هذه خمارّة، وتلك الغرف الملاصـــقة لها لا تليق بكما، أما هذه الغرفة المعزولة والنائية عن الخمارّة وملحقاتها، فهي غرفتي المخصوصة، التي لا يدخلها أحد غيري"

نظرت إليـه المرأتان بعرفـان وامتنـان كبيرين، وانحـدرت من عيني العجوز دمعتان، فيما أخذ لسـانها يلهج بالشـكر. فشـعر عشـا البايتات بالحرج، وتندى جبينه خجلاً، وقال في عطف:

"سـأحضـر لكما شـيئاً تأكلانه الآن، وإذا احتجتما لأي شـيء فيما بعد، بأي وقت، فقط ناديا علي"

وانصرف تلاحقه عبارات الشكر؛ تزيده حرجاً. ما أن خطى عشا البايتات داخل خمارته، حتى فوجئ برجل مألوف الشـــكل، بدا واضـــحاً أنه أحد عســـس دكّام، كان التعب والإرهاق والإعياء والنصـــب، أبرز ما يبين في مجمل هيئته. نظر إليه العساس بعينين خاويتين وقال:

"هل لي بطعام وشراب"

من أكثر الأشياء التي كان "عشا البايتات" يكرهها، هي اضطراره التعامل مع هؤلاء العسـس، فغالباً لا يدفعون ما عليهم، حتى لو تقاضـوا رواتبهم. ولا أحد يستطيع "أن يقول لهم تلت التلاتة كم!"..

الدولة دولتهم. وكل شـــيء يريدونه يأخذونه "أم كواكية" فهم الخصـــوم والقضاة في الآن نفسه!

أكل العساس وشرب، إلى أن عاد البريق إلى عينيه الخابيتين، وتجشأ بطريقة مقززّة، وهو يمســـح على بطنه برفق ورقة، تتناقض مع ملامحه القاســـية، ولباسه العسكري المتسخ، ثم نهض وهو يقول لعشا البايتات:

"أطعمك رب المنتظر وسقاك من خيراته"

فأدرك عشـا البايتات، أنه لن يدفع كعادة عســس هذا العهد، وقد أحال دون شـك أجر الخدمات التي قدمت له، إلى الله مباشـرة لينظر بشـأنها. ثم أردف:

"ساعطيك ما أدين به إليك، حالما ينجح الانقلاب المتوقع داخل القصر"

سأل عشا البايتات وحاجباه يرتفعان دهشة:

"لم يمض على استلام المقدّس سرّه الأخير، على أنقاض بني الأعتم، سوى سنوات قلائل.. فعن أي انقلاب تتحدث؟"

"لا. أعني الأسرة المالكة فيما بينها. ثمة شـائعات عن صـراع على السـلطة محتدم داخلها"

اسـتدرك عشـا البايتات، أن العسـاس يريد صـرفه عن التفكير بما يدين له به، من ثمن الطعام والشراب. فغير الموضوع قائلاً:

"أوتعني أنكم تعملون مجاناً؟"

"لا أعني ما فهمته، ولكن الأعطيات لا تفي بحاجات أسـرتي. الحيّاة أصبحت غالية وقاسية، على عهد هذا السلطان الجبار الشحيح، كما تعلم"

"وكيف أعلم وأنا لا أعمل في الدولة، كأنك تحن إلى عهد بني الأعتم الأوائل؟"

"لا أخفي عليك، نعم. فقد كانوا يغدقون على العسس في سخاء"

"لكنكم لا زلتم تغنمون كثيراً، في الحروب"

"ذاك زمان مضى. الغنائم الآن يستولى عليها قادة الجند إن وجدت، ألم تسمع بتقدم المغول"

"حروبهم بعيدة عنا. ما ظننتهم سيغزوننا"

"وربما يفعلون"

"هل تعتقد أن الانقلاب إذا نجح حالك سيتغير، وتعطيني ما تدين به إلى؟"

"نعم. فالبيعة للسلطان الجديد ثمنها غالي، خاصة إن كان هذا السلطان هو قائدنا المقدّس سرّه دكّام"

ألقى العساس كلماته الأخيرة وانصرف. لا يأبه لحاجبا عشا البايتات اللذان ارتفعا حتى تخطيا جبهته، واقترنا هناك لبرهة، وما أن استعاد حاجبيه إلى موضعهما، حتى أخذ يضرب كفاً بكف وهو يردد لنفسه:

"البيعة تساوي كسرّة خبز وشربة ماء؟! هذا زمان المهازل حقا!"

قُبيل العيد بيومين.. قُبيل أن ينتقل صـانع الفخار إلى رّحمة مولاه بليلتين، كان يجلس مطمئناً على فروته، ممسكاً بلوحه الخشبي المميز، وفي يده قلم حاد السـن من القصـب البوص، ومن ثم خط بأصـابعه الثابتة في مرونة، خطوطاً ب"العَمار" الأسود الناعم، على حواشي اللّوح الخشبي الصقيل.
ثم شكّل من الخطوط التي رّسمها طولاً وعرضاً، إطارين داخل بعضهما، ثم قسم المساحة بين الإطارين إلى مربعات صغيرّة متساوية، ووصل زوايا هذه المربعات بخطوط متقاطعة، مكوناً مثلثات.
ثم رسم قبة هرّمية وأخرى مدورّة، فوق سقف الإطار الأعلى، وضع فيها دوائر ومربعات. ثم توقف قليلاً، ريثما يلتقط أنفاسه ليواصل الرسم.
ثم عاد يملأ المثلثات نسقاً متتالياً بألوان الطيف، في تدرج بديع.. مشكلاً في هذا المهرجان، لوحة آسـرة أحاطها بإطار أبيض مزّخرف.. ثم بدأ يخط على لوحه، بخط جميل حكمة المبتدأ والمنتهى!
وفي الليلة الثانية عندما هل العيد.. علق صـانع الفخار ألواح تلاميذه جميعاً، على جدران الخلوى الظليلة، التي تندمج فيها الجدران والألواح، التي تتراءى كمصابيح ملونة، أُوقدت لتعلق في ظل الخلوى المديد!

لطالما اقترنت صورة صانع الفخار العنبسي، في خيال أهالي البلدة القديمة، بالعيد واللّوح الخشبي وقلم البوص، مع أن الأيهم أو أياً من الأهالي، ليس بامكانه الزعم أنه أو أسلافه، قد رأوْا صانع فخار عياناً بياناً!

فكل ما تواتر إليهم؛ ورسخ في ذاكرتهم؛ هو مهرجان ألوان الطيف، والشيخ العجوز على الفروّة. وما استقر في وجدانهم جميعاً، من آلاف الحكايا المتنوعة؛ عن أصله وفصله وهيئته وملامحه، وسلوكه اليومي؛ وطبعه وعاداته في تعليم الصبية، تعاليم المنتظر.. وخطه الجميل.. و.. وكل شيء.

ومع ذلك لم يستطع الأهالي الطاعنين في السن، الزّعم أنهم أو آبائهم أو أجدادهم، تعلموا على يد صانع فخار.. الرجل الذي تختلف الروايات حول صلاحه!

ولذا كانت سيرّة صانع الفخار عندما ترد، تحلق كطيف أو خيال، يجاري الواقع الذي يعيش الأهالي، محاكاته بالحكي والتوهم!

وفِي وجدان الأهالي؛ أن صانع الفخار هو من أقنع المقدّس سرّه، أو أوحى له بتأسيس الضريح، الذي يرقد تحت النخلة اليتيمة، في باحة سجن القلعة، والتي ستحمل اسم صانع الفخار نفسه!

لكن.. في الحقيقة، أن المقدّس سرّه، سليل بني الأعْتم، لا يعتبر فعلياً الأب المؤسس لضريح صانع الفخار، إذ يقال أن الضريح شُيد في سجن

القلعة، على عهد الجد المؤسس؛ لدولة بني الاعتم الطرباق بن الأعْتم بن أبي ليل الظلامي، الذي ينحدر منه المقدّس سرّه، وكان قد أسسه أحد أخطر قادته يدعى "المُبْيِر" ليكون عبرة لاتباع الطوائف المتمردين، أنهم سيلقون المصير المأساوي نفسه، إذا سوّلت لهم أنفسهم الخروج عليه.

فيما ذهب البعض إلى أن صانع الفخار المعني، هو الجارود قائد العنابسة الأوائل، الذي بُعيد استسلامه للمُبْيِر انتقل إلى هنا، هذه الأرض التي كانت فضاء قردود يخلو من الشجر والحجر، حيث تنهض النخلة الآن، منصرفاً إلى الدرس وتعليم الصبية، لكن القدر لم يمهله سوى أيام قلائل، فمات ميتة غامضة، لم يتم الإفراج عن أسرارها أبداً!

الأمر الذي ألهب خيال الأهالي، وأشعل كثير من الأساطير، التي اشتغلت بحثاً عن تفسير!

ويحكى عن "المُبْيِر" الذي كان خلف الكثير من الهلع والرّعب، أنه لعب دوراً كبيراً في تثبيت أركان دولة بني الأعتم، وأنه كان خطيباً بليغاً، وقائداً عسكرياً بارعاً، إذ غزا البلدان وحاصر مراتع الفقرا، وهدم الضريح الكبير بالمنجنيق. وأورث البلاد الأسيرّة، ميراثاً مرعباً من الخوف والأوهام المزمنة.

وعلى حسب مخطوطات الأيهم الموروثة، التي لم يطلع عليها سواه والمهتمين، من أفراد عائلته المجيدة، أن المُبْيِر وُلد في دبة الناقة، في العام نفسه الذي تنازل فيه المحسن، للطرباق عن السلطة.

وكان أبواه قد أسمياه الفنجري، لكنه عندما شبّ عن الطوق، غيّر اسمه إلى المُبْيِر.. ومما اشتهر به تعظيمه لتعاليم المنتظر، التي كان يلقنها للأطفال في الخلوى، وعندما تنازع أبناء عم المنتظر وبنى الاعتم على السلطة بعد وفاة الطرباق، وأصبحت الدولة نهباً بين محاربيهما.. تعاني الترهل وسوء التنظيم والادارة، واستخفاف الجند والعسس بالنظام، وقلة المجندين. قرر المُبْيِر حينها الالتحاق بـ جند وعسس الإمارة!

حيث أبدى حماسة وانضباطاً، وسارع إلى تنبيه قائده لكل خطأ أو خلل، وأخذ نفسه بالشدّة، ما جعل قائد العسس يقربه منه، ويرفع مكانته، فرقاه فوق زملائه، الذين ما لبث إلا قليلا حتى أخذهم بالشدّة، وعاقبهم لأدنى خلل، فضبطهم، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمر.

وما أن قدمه قائده، الذي كان معجباً به إلى المقدس سرّه الأعتم بن الطرباق، حتى أثبت حضوراً قوياً، موظفاً دهائه وقدرته على التخطيط، التي استطاع بها فيما بعد.. في تلك المرحلة الحرجة، جمع دولة بني الأعتم، التي كادت أن تتفرق، وحمايتها من السقوط.

الصعود المضطرد للمُبْيِر، أوغر صدور أصدقاء الأمس، خاصة قائده القديم والموالين له ممن كانوا تحت إمرته، وكان أن جاء المُبْيِر يوماً على رؤوسهم وهم يأكلون، فنهاهم عن ذلك أثناء عملهم، لكنهم لم ينتهوا، وتجرأوا فدعوه لتناول الطعام معهم، فأمر بحبسهم وإحراق مقرهم.

فشكاه قائده القديم إلى المقدّس سرّه، فدعاه الأخير وسأله، عما حمله على فعله هذا، فقال:

"إنما أنت من فعل يا سيدي، فأنا يدك التي تضرب بها الخارجين على أمرك، وسوطك الذي تجلد به المهملين في وظائفهم التي وظفتهم فيها!"

ثم أشار عليه بتعويض قائد العسس، دون كسر أمره. وكان المقدّس سرّه وقتها، قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة العنابسة الخارجين على بني الأعتم، فضم المُبْيِر إلى الجيش، الذي قاده بنفسه لحربهم.

ولم يكن حينئذ أهل دبة الناقة ومراتع الفقرا، يخرجون في الجيوش، فطلب المبير من المقدّس سرّه، أن يسلطه عليهم، ففعل. فأعلن المبير:

"أيما رجل قدر على حمل السلاح، ولم يخرج في الجيش، أمهله ثلاثاً ثم أقتله، وأحرق داره، وانتهب ماله".

ولتأكيد وعيده طاف بالبيوت باحثاً عن المتخلفين. فوجد أحد المعترضين، فلم يتردد في قتله، فخاف الجميع، وخرجوا معه يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى.

لفت المُبْيِر أنظار المقدّس سرّه، الذي كان قد رأى فيه شدّة وحزماً فاجرين، كان في أمس الحاجة لهما حتى ينهي الصراع الدائر، بينه وطوائف صانع الفخار، خاصة العنابسة الذين يقودهم الدود بن سابح، الذي كان قد أعلن نفسه مقدساً سرّه، بعد وفاة الطرباق بن الأعْتم، فدان له بالولاء

معظم أنحاء البلاد الأسيرّة، ولم يبق سوى ما بين النّهرين، التي ظلت على ولائها للأعتميين، بل وبايعت أحد أمرائهم. ونجح المبير في استعادة ما وراء البحر الملون، من قبضة الدود ابن سابح.

ومضى المبير في استكمال مهامه، فانتزع ما وراء النّهرين، ولم يبق في يد الدود، سوى دبة الناقة ومراتع الفقرا، فجهز المقدّس سرّه، جيشاً أوكل أمر قيادته للمُبْيِر، للقضاء على دولة الدود تماماً.

فحاصر المُبْيِر مراتع الفقرا، وضيّق الخناق على الدود المحتمي بالضريح، الذي كان وقتها أصحابه قد تفرقوا عنه وخذلوه، ولم يبق معه سوى قلة من المخلصين، لم يغنوا عنه شيئاً.

إذ لم تكن لديه القدرّة الكافية، للدفاع عن مراتع الفقرا المقدسة، التي أخذ المُبْيِر يضربها بالمنجنيق حتى تهدّمت بعض أجزاء الضريح، ثم انتهى القتال باستشهاد الدود، والقضاء على دولته، قضاءً مبرماً!

وهكذا أصبحت منذ تلك اللحظة، البلاد الأسيرّة بأكملها، تدين بالطاعة لمقدس سرّه واحد. وكان من أثر هذا الظفر، أن أسند المقدّس سرّه إلى المُبْيِر، ولاية مراتع الفقرا ودبة الناقة، مكافأةً له على نجاحه، فكان عند حسن ظنه به، إذ أظهر حزماً وعزما في إدارته؛ حتى تحسنت أحوال ولايته فأعاد بناء الضريح، ومراقد الأولياء، وبنى خلاوى لصانعي الفخار الموالين

لبني الاعتم، ليعلموا فيها الصبية، الذين كان جلهم من العسس الأعتميين المستقبليين!

وبطبيعة تاريخ المُبْيِر الدموي، كان أهالي مراتع الفقرا ودبة الناقة يكرهونه وعلى خلاف كبير معه، فهم لا يستطيعون أن ينسوا قتله لخيرة العنابسة، صانعي الفخار الأتقياء الأنقياء الذين خبروهم، ولا يستطيعون نسيان هدمه الضرّيح المقدس بالمنجنيق، وقيل إن الجارود ابن العدل وهو يحتضر أوصى بأن يدفنوه ليلاً، ولا يخبروا المُبْيِر، حتى لا يفرض نفسه على الجنازة ويصلي عليها!

لكن كل ذلك؛ لم يمنع المُبْيِر من تولى زمام الأمور بين النّهرين، بل إن استبداده ودمويته، هما ما رشحاه لتولي هذه المهمة العسيرّة، ولذلك عندما نزل على أهل أندرين، التي أرسل منها من أمر النّاس، بالاجتماع إليه في معسكره، دخل عليهم ملثماً بعمامة حمراء..

اعتلى المنبر فجلس وأصبعه على فمه، يمعن فيهم النظر، فلما ضجوا من سكوته؛ خلع عمامته بغضب وقال:

"أنا ابن جلا و طلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفوني.. ورب المنتظر إني لأحمل الشر بثقله، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله.

ورب المنتظر إني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأنني أرى الدّم بين العمائم و اللحى..

يا أهل النّهرين؛ إن المقدّس سـرّه نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي.

يا أهل النّهرين.. يا أهل النفاق والشـقاق ومسـاوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن الغي، ورب المنتظر لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصـبنكم عصـب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.

إني ورب المنتظر لا أحلق إلا فريـت، ولا أعـد إلا وفيـت، إياي وهـذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟

يا أهل النّهرين! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بالنعم، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاسـتوسـقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشـايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السـيف، ثم لا يغمد في الشـتاء والصـيف، حتى يذل للمقدّس سـرّه صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم.

ثم إني وجدت الصـدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النّار، وإن المقدّس سـرّه أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإشـخاصـكم لمجاهدة عدوكم وعدوه، وقد أمرت لكم بذلك،

وأجلتكم ثلاث أيام، وأعطيت رب المنتظر عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد؛ لأضربن عنقه. ولأنهبن ماله. ويحكم لريحكم أنتن من ريح الأبخر، وإنما أنتم "مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار".

ثم التفت إلى غلامه وقال:

"اقرأ عليهم كتاب المقدّس سرّه يا غلام"

فقرأ الغلام:

"بسم رب المنتظر من المقدّس سرّه إلى من بالنّهرين سلام عليكم، فإني أحمد إليكم رب المنتظر.."

وكانوا ينصتون، فالتفت المبير إلى الغلام من فوق المنبر غاضباً وهو يقول:

"أسكت يا غلام"

فسكت الغلام، ثم عاد والتفت إليهم:

"يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم المقدّس سرّه، فلا تردون السلام؟ هذا أدبكم؟ والله لئن بقيت لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابائكم، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب المقدّس سرّه يا غلام"

فقرأ الغلام من جديد:

"بسم رب المنتظر..."

فلما بلغ موضع السلام صاحوا جميعاً:
"وعلى المقدّس سرّه السلام ورحمته تعالى وبركاته"
ومن ثم أعلن المُبْيِر حربه الضـــارية على طوائف صـــانع الفخار؛ المناوئة. فقاتل العنابسة والثائرين على دولة بني الاعتم في معارك كثيرة، وكانت لهم الغلبة عليه في كل الحروب، إلى أن قرّر في آخر حروبه معهم، الخروج إليهم بنفســـه، فاقتتل مع قائدهم حنظلة العنبســـي فهزمه، وقتل زوجته الرّيل، التي كانت تقود النساء العنبسيات.
وبعد انتصـــاره على العنابســـة، أمعن في الظلم والتجبر، فصـــادر كل الحرّيات، بما فيها حرّية الكلام. وحبس الناس، وأمعن في تشـــريدهم وقتلهم، و منع البدو من الهجرّة إلى الحواضر.
وهو أول من عين مؤرخين برواتب من ديوان العســـس، يكتبون التاريخ على هواهم، ويلفقون الوقائع والأحداث، والانتصارات والهزائم، والعقائد والأفكار، حتى تبددت الوقائع الحقيقية عن أذهان النّاس، ورسخت محلها وقائع لم تحدث، وشخصيات لا وجود لها، وأحاديث لم يسبق للمنتظر في حياته أن قالها، وقتلى بســـبب أفكار لم يتبنوها، أو يفكروا فيها، نســـبها إليهم المُبْيِر وفقهاء الظلام بأمر من أولياء نعمته من بني الأعْتم!

وفي الحقيقة، فعل أحفاد أبناء عم المنتظر، بعد مئات السنوات الشيء نفسه، للقضاء على كل أثر خلفه الأعتميون وراءهم، فضاعت حقيقة ما جرى حقاً!

لقد كان العنابسة، الذين عرفهم أهل زمانهم أتقياء أنقياء، يقض الورّع والتقوى مضاجعهم، ولا يشغل بالهم سوى خير النّاس، وأمنهم من الفقر والجهل والمرض.

فحاربوا هؤلاء الأعداء الثلاث، أكثر مما حاربوا بني الأعتم، وكان منهم العلماء والحكماء والفلاسفة والمعلمين، ومما لا شك فيه، أنهم كانوا الأقرب إلى مكارم الأخلاق، التي حملتها عقيدة المنتظر وكانوا من حفظة تعاليمه الاوفياء. ولا شك أنهم أبرياء مما نسبه إليهم، مؤرخو وفقهاء بني الأعتم، حتى صار بمرور الوقت من المسلمات.

استمر المُبْيِر يقاتل ما تبقى من العنابسة، يأتي برؤوسهم ويأمر بالطواف بها، عبر حواضر وبلدات الامبراطورية المترامية الأطراف، وفي الحقيقة أن جيشه هُزم في تسعين من بين واحد وتسعون معركة.

المعركة الوحيدة التي انتصر فيها، أباد فيها العنابسة، الذين لم ينج منهم سوى تسعة أو سبعة، تفرقوا في قبل الأرض الأربعة. حيث أسسوا في منافيهم، طوائف صانع الفخار من جديد.

لم تخلوا حيّاة المُبْيِر من المؤامرات والدسائس ضده، فكُثُر حاولوا الدّس له عند المقدّس سرّه، لكنه احتج على المقدّس سرّه بحسن بلاغته. وقد بلغت ثقته بنفسه، أن نقش اسمه على الدرهم الأعتمي باللغة الفَهلَوِيّة.

وكان ولي عهد المقدّس ســـرّه وابن عمه العدل الثاني، يكنان للمُبْيِر عداءً شـديداً، بسـبب قسـوته وظلمه للنّاس، لذا عندما أُصـيب المُبْيِر في آخر عمره بداء المعدة، الذي تسبب في موته، قال العدل الثاني:

"ما حسدت المُبْيِر على شيء، حسدي إياه قوله حين حضرته الوفاة:

"اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل".

وأضاف:

"لما حضرت المُبْيِر الوفاة أنشأ يقول:

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا

بِأَنَّنِي رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ

أَيَحْلِفُونَ عَلَى عَمْيَاءَ؟

وَيْحَهُمُ ما عِلْمُهُمْ بكريم العَفْوِ غَفَّارِ؟"

ترك المُبْيِر وصية ماكرة، قال فيها:

"أنني لا أعرف إلا طاعة المقدس ســـرّه عليها أحيا وعليها أموت وعليها أُبعث".

وقيل له قبل أن تدركه الوفاة:

"ألا تتوب؟"

فقال:

"إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع"

دفن الأعتميون المُبْيِر في قبر مجهول المكان، بعد أن مرض مرضاً عجيباً، كان يشعر معه بالبرد الشديد، حتى أنه كان يستجدي ممارضيه، أن يقربوه من النار، حتى لتكاد تحرق بعض ثيابه، وقيل أن الدود أكل بطنه، فأمر المقدّس سرّه أن يُدعى له بالشفاء على المنابر، في كل الدولة. وتزعم مخطوطات الايهم العائلية الموروثة، أن المُبْيِر مات هذه الميتة البشعة، التي شهد فيها الدود؛ يأكل جسده وهو حي، ذلك أن دعوات صانعي الفخار قد أصابته!

إذن، فيما "البلدة القديمة" تتكوّن في تشـظي ما سـبقها من بلدات ومدن قديمّة، و تتخذ لها اسماً جديداً هو بلدة صـــانع الفخار، على أنقاض كل الأسماء التي أُطلقت عليها عبر التاريخ الحزين للبلاد الأسيرّة، لا يرد اسمها إلا وقد اقترنت بالنخلة العجوز، في باحة سجن القلعة، الذي شيده المُبْيِر على جماجم العنابسة، قبل مئات السنوات!

حول صانع الفخار الذي قتله المُبْيِر، الذي انتقل من الضرّيح، وتحوّل إلى شـجرّة، نسـج خياطي السـرّاويل ونجارين العناقريب، في أوقات فراغهم، حكايات مدهشـة، قرنوها بأصـل الإنسـان، فزعموا أن صـانع الفخار، الذي لم يختلط دمه بأي دم غرّيب عن ســلالته، إنما هو حفيد "ســيد الاسـم" الابن الرابع الأصـغر، غير المعروف لأبي البشـر، بعد مقتل قابيل على يد شـقيقه هابيل، و مولد شـيث كبديل لقابيل القتيل، اذ خرج سيد الاسم مُغاضِبا لشيث، محتجاً على دفن شيث، للنصوص المقدسة مع أبو البشر في القبر، ظناً منه أن شقيقه سيقتله، كما قتل هابيل قابيل من قبل! وهكذا اختفى، دون أن يُعثر له على أثر، فاســتهل أبناء إخوانه هابيل وشيث، عهداً من الحكي يفسرون به اختفائه، تأسـست على قاعدّة هذا الحكي كل الحكايات، التي خلصـــت عبر القرون، أنه ســيظهر يوماً ما، ليمنح قـابيـل الغفران الأبـدي، وليخلص الأهـالي البســطـاء من الظلم والجور!

وتشـــتد ســـطوة هذه الحكايا بالذات، في أوقات الفقر المدقع والبطش والخوف والعسف!

الحكاية التي نســـجها خياطي الســـراويل، بالتعاون مع نجارين العناقريب تفيد، أن صانع الفخار؛ هو الحفيد الأصغر لسيد الاسم! وعندما حاول أحد المتنطعين غلاطهم؛ وإقناعهم بغير ذلك. كادوا أن ينجروا رأســـه؛ ويخيطون جســـده مع الأرض! لذا لم يجرؤ بعد هذه الحادثة أحد؛ على التشكيك في هذه الحكاية، أو سواها من حكايات!

ولأن شخصية صانع الفخار؛ كانت غامضة، انعكس هذا الغموض؛ على تحديد نوع هذه الشجرّة، فهي دوناً عن كل الأشجار، خاصة المثمرّة. غير محددة إذ تبدو أحيانا كالتبلدي متعرّية في فسق.

تتجرد من أوراقها؛ ولا تترك ورّقة واحدة تغطي سؤاتها، رغم أنها تتصف بـ أغصانٍ كثيرّة متشابكة، وتثمر نوعاً غريباً من الثمار، لا يمكن نسبته إلى قبيلة محددة كالموالح مثلاً!

حكامات وادي الرُّحل القديم، في غمرّة حماستهن غنين سرديات غنية بالخيال المهدر، أشرن فيما غنين، إلى شقيقات الشجرّة السبعة؛ اللاتي تفرّقن في قبل الأرض الأربعة، ما جعل "المداحين" يتساءلون: هل يعني ذلك أن هناك سبعة فقرا أشقاء للفقير صانع الفخار!

وركنوا لهذا التساؤل كتفسير ممتنع!

وعلى أية حال؛ نخلة صانع الفخار، كشجرّة نهضت على جرف وادي البلدة القديمّة، الذي تسقط فيه الأمطار بغزارة، لا تلبث أن تعقبها فترّة جفاف؛ كانت تختزن كميات هائلة من الماء، تمكنها من الحيّاة، وقد يصل قطر جذعها إلى ما يزيد عن عشرّة أذرع. وتتفرع غصونها؛ وتقل أوراقها حتى يخيل للناظر إليها أنها جذّور، الأمر الذي كان يقلل من عملية تبخر الماء!

كان أهالي البلدة القديمّة؛ يأكلون ثمار هذه الشجرّة، ويشربونها كعصير بل ويعصـــرون بذورها، لاســـتخراج زيت الطبخ، وفيما يبدو أن ثمار هذه الشـــجرّة، تعالج كثير من الأمراض، إذ كان من النّادر، أن تجد أحداً من الأهالي المعمّرين، يشكو من علة من العلل!

بل كان عصـــيرها الذي يصـــنعون منه العرّق، يجعلهم مســـكونين بشـــبق غرّيب، يدفعهم لملاحقة المؤخرات الأنيقة للنســـاء، بعيونهم دون حياء؛ ويزعمون أن ذلك يطيل العمر!

ســـر اهتمام الرحالة المباغت بأمر هذه الشـــجرّة، وما نســـج حولها من أساطير وحكايات، أنهم لدى عبورهم أرض البلدة القديمّة، لفتت انتباههم بضخامتها التي لم يألفوها، في بنات جنسها من النخيليات، أو في أي نوع من الأشجار التي يعرفونها، إذ تميزّت عن قريناتها من الأشجار الاستوائية وأشـــجار الســـافانا، بالكثير من الخصـــائص، إذ يمكن التعرّف عليها من المشاهدّة الأولى.

ففضلاً عن ضخامتها، هي الشجرّة الوحيدّة؛ التي تنفض أوراقها وتصبح عارّية من الأورّاق، بين الكثرّة من الأشـــجار دائمة الخضـــرّة، وهي من الأشجار المعمرّة القليلة؛ على سطح هذا الكوكب الحزين!

وما ظل يميز هذه الشـــجرّة، ليس ضـــخامة وغلظ جذعها، ولا الارتفاع الكبير لهذا الجذع، الذي يزيد قطره عن عشـــرّ أذرع، بل هو عدم ثبات

هذا القطر، إذ يختلف من فصل لآخر، ومن سنة لأخرى زيادة أو نقصاناً، تبعاً لرطوبة التربة ودرجة الحرارة، وكمية الأمطار الساقطة في هذه السنة، أو تلك.

وكذلك تبعا لكم التعاويذ؛ التي يلقيها الفقرا عليها، عند زيارتهم لضـــرّيح صانع الفخار؛ الراقد تحتها.

وفي الســـنين القليلة الأمطار، يصـــبح الجذع أقل سُمكاً، مما كان عليه في الســـنوات الغزيرة الأمطار. وقد لاحظ نجارين البلدة القديمّة؛ هذا الأمر على مر الســـنوات، وظلوا يراقبونه ويربطونه بأحداث حياتهم اليومية، بكوارثها ومباهجها وأتراحها وأفراحها!

في موّسم الأمطار؛ تخزّن الشجرّة في أنسجة جذعها، كميات كبيرة من المياه. تستخدمها في فصل الجفاف، وكانت الفيلة والجمال قد اعتادت؛ سلخ قلف الجذع الشوكي؛ للوصول إلى الأنسجة الرطبة، المشبعة بالماء، لتمتصها، وكانت القلف الداخلية تتكون من أنسجة قوية متينة، ظل أهالي البلدة القديمّة يسحبونها من الشجرّة، ليصنعوا منها سلال وشباك ومشلعيبات وحبال. والكثير من الأغراض، التي يحتاجونها في حياتهم اليومية.

بعض الجنكويز الخبثاء، أشاعوا أن استثمار الأهالي للشجرّة في حياتهم اليومية، تأكيد أن لا قيمّة للمقدس إن لم يتميز بالعطاء المادي الملموس، ولهذا السبب بالذات يقدسونها، وليس لارتباطها بصانع الفخار كما يشيعون!

وفِي الحقيقة لم تكن الشجرّة، تتأثر باستغلال الأهالي لها، كانتزاع قلفها مثل باقي الأشجار، فهي دونا عن بنات جنسها، كانت تجددها بعد إزالتها، بسرعة فائقة!

الرُّحل والمسافرون عبر أصقاع البلاد الكبيرّة، في اتجاه الشجرّة، يحرصون أن لا تكون طرق سفرهم بعيدّة عنها، حتى يلجأون إليها، في حال الحاجة للماء والطعام!

ويقال أن الفتحة في أسفل جذعها؛ نحتها مسافرون غرباء، كانوا قد احتموا بها من ريح عاصفة، ألمت بهم. ومنذها أصبح المسافرون؛ يستخدمونها كغرفة للسكن.

بل أقام الأهالي في جذعها فتحات أخرى، اشتغلت كمتجر لبيع "المريسة" و"خميس طويرة" والأغراض التي يحتاجها المسافرون، فضلاً عن تلقي البريد؛ الذي يحمله الهجانة، عبر سباسب ووهاد البلاد الأسيرّة.

كما أن الأهالي على امتداد إحدى فتحاتها، أنشأوا مسلخاً و زريبة للبهائم الضالة! وكذلك من ليفها صنعوا أقمشة للحقائب والملابس الخشنة. كما استخدموا ظلالها الواسعة، كخلاوىً لتعليم الصبية، القراءة والكتابة وعقيدة المنتظر.

من أغصان الشجرّة الضخمة، كان الأهالي يصنعون قوارب صيد الأسماك الفاخرة، التي يستخدمونها في عبورهم الوديان الهادرّة في الخرائف المثمرّة.

وأقام أهالي البلدة القديمّة، على امتداد احدى فتحاتها معبداً للصلاة وتقديم القرّابين. يعتبر من أقدم المعابد على وجه الأرض! وعلى امتداد فتحةً أخرى، أقام شباب البلدة القديمّة، نادياً للهو والمرّح وتزجية الوقت!

تزعم "النعيسانة" حكامة حاضرّة نخلة صانع الفخار أن البصاصين في القبل الأربعة، التي تتواجد فيها الشقيقات السبعة لشجرتهم، أفرغوا الشجرّات من الداخل، واستخدموها سجوناً للمعتقلين، المناوئين للسلطان، وبطبيعة الحال، لم يجرؤ أحد على مغالطة الحكامة، التي كانت تعتبر نفسها دوما، مصدراً غير رّسمي للمعلومات؛ لكن محل ثقة!

خاصة ان الحكامة؛ هي من استخدم سلطته ونفوذه، لفرض شجرّة النخيل؛ كشعار للبلدة القديمّة.

لكن أهم شيء فعله الأهالي، على امتداد إحدى الفتحات؛ هو ما خُصص لنّار "التقابة". فعلى امتداد احدى فتحات شجرّة النخيل، أفسح الأهالي مكاناً لإيقاد كبرى نيران تقاقيبهم.

والتي لم تكن نارها بنظرهم؛ مجرد عنصرٌ طبيعي فَّعالٌ، اذ لطالما اعتقدوا أنها نار لا تنطفئ، لأنها نور يستمد جذوته من عالم الأنوار، الأمر الذي ظل يفسر ألسنة النّار للأهالي.. لا داخل بيوتهم فحسب، بل حتى عندما يجتمعون في العشيات، حول ألسنة النّار، يرتشفون الشاي؛ ويتناقلون حكايا أسلافهم البائدين، في حنينهم الغامض ليحيى بن ذكريا.

فكانت نار "التقابة" لا تضئ أروقة مشاعرهم المقدسة فحسب، بل تضئ حتى عتمات تاريخهم، في رحلته الطويلة منذ الأزل..

لحظة الاكتشـــاف الأول للنّار، ولهذا كان الأهالي يعكفون، على إرســـال أبنائهم وبناتهم، لتلقي تعاليم المنتظر الموروثة، التي حفظتها "التقابة" حول النخلة الكبيرّة، على يد الفقرا حرّاس هذه التعاليم المقدّســـة، منذ نفض النّاس ايديهم من تراب قبر المنتظر.

التقابة الكبيرّة حول نخلة صـــانع الفخار، كانت خاتمة المطاف في تلقي تعاليم المنتظر. إذ يبدأ أبناء الأهالي، في تلقي التعاليم منذ طفولتهم، في التقاقيب الصـــغيرة، ثم ينتقلون إلى التقاقيب المتوســـطة، ثم الكبيرة؛ فتتم تصـــفيتهم في كل مرحلة؛ للانتقال إلى المرّحلة التي تليها، إلى أن يصـــل التقابة الكبيرة صـــفوتهم، فيمكثون فيها ســـنوات؛ يتم اعدادهم فيها، ليصبحوا فقرا.

خلال كل هذه المرّاحل، يســـتخدمون لوحا خشـــبياً، في تلقي التعليم، بالكتابة عليه بالقطران المعجون من الأعشـــاب، يخطون التعاليم بقلم البوص الذي يغمســـونه في مجســـدة الدوايا، التي هي قنينة قرع جاف، يحفظون فيها القطران كحبر للكتابة على لوح الخشـــب الصـــقيل، تعاليم المنقذ المنتظر من المبتدأ إلى المنتهى.

وعلى ألســـنة نار التقابة، التي تمزج ما بين نار جوى الدنيا ونار الآخرة، تنعكس إضـــاءتها على ذات اللوح، حيث تتجلى نقوش التعاليم، التي

خطتها أقلام البوص كأبهى التحف الفنية، الضـــاربة بجذورها، في أعماق نفوس الأهالي.

إذ ترتبط التعاليم التي اختطها البوص، على ألواح الخشــب، في نفوســهم بالنور الذي يهدي السُرّاة، والنّار التي تصقل الجماد، كما وتجسد الديمومة التي تدور حول وهجها، مفاهيم نور التعاليم، التي تضــئ عتمات النفس، المشـبعة بحكايا الأسـلاف والليل وأصـواتهم وطلابهم، التي تلاحق الأهالي متسـللة من أغوار التاريخ، وهي تتسـرب أحلامهم متحشـرجة حيناً وحيناً ندية، تمزج داخلهم الخوف بالأمل والأمنيات والأحلام، والعشـــم بالمأوى الأخير في عالم الأنوار.

عندما يســـتعيد عشـــميق مراحل حياته منذ الطفولة، تثبت في خاطره صـورتين: القن والتقابة، لكأنه يرى الآن لوحه المرهف من خشـب العشـر الخفيف:

"حفظته وعرضته على الخزين ذات صباح، ثم ذهبت فمحوته وطليته بجيرة بيضاء لبنية صافية، وجف كأنه ورقة صقيله..

وضـعت اللوح مبتهجاً بين يدي الخزين، فابتسـم بوجهي ابتسـامة مشـرقة رسخت في وجداني كل المعارف"

كان طالب تعاليم المنتظر كلما أتم حفظ جزء من الكتاب المقدس، شَّـرف شـــيخُ الفقرا لوحه، تحية للطالب على حفظه وتبريكاً، بمثابة جائزة معنوية ذات قدر وأثر في نفوس صانعي الفخار المحتملين.

"كـان فرحي المتـأمـل وشـــغفي العـذري بالحيـاة النقيـة الخيرّة، والألوان والأضـواء الموحيات، وكان الخزين يجود عمله ويتقنه وكان يعرف أثر عمله في نفسي ونفوس تلاميذه الحيران. ويناديني بالأيهم المبروك!"

❁❁❁

على الرغم من صعوبة تقدير العمر الحقيقي لشجرّة صانع الفخار، إلا أن مزارعي السمسم، اكتشفوا طريقة سرّية لتخمين عمر الأشجار!

خلال ربطهم قطر الشـجرّة وعمرها المفترض، فأعطوا كل ذراع ألف عام، وعلى ذلك يكون صـانع الفخار قد انتقل من عالمهم إلى عالم الشـجرّة، قبل عشرة آلاف عام، لأن قطر جذعها عشرة أذرع!

وقد لاحظ الأهالي في السنوات الأخيرّة، أن الشجرّة لم تعد تعوض فروعها التي يقطعونها، فأصبحت غصونها قليلة، متباعدة عن بعضها، متجهة إلى الأعلى وهي عارية من الأوراق، فتبدو وكأنها مقلوبة رأسـاً على عقب، جذورها في الهواء وفروعها داخل التربة. الأمر بمجمله اعتبره الأهالي من علامات السـاعة وقرب بعث المنتظر، سـيد الاسـم الابن الرابع لأبي البشر.. الجد الأول لصانع الفخار.

هذا ما أكده لهم ذلك التسـاقط السـريع لأورّاق الشـجرّة، على غير ما اعتادوا، إذ لم يعد هذا التسـاقط مرتبطاً بتغير الفصـول! وهو أمر نادر لا يمكن أن لا يقرنوه بحدث مقدّس وشيك الوقوع!

شجرّة النخيل متساقطة الأورّاق، حالة نادرة في الأشجار النامية في مناطق الصحراء والسافانا والاستواء، والمناطق التي تتميز بوجود فصلين كفصل الأمطار وفصـل الجفاف، حيث تسـقط أورّاق الأشـجار مع بداية موسـم الجفاف، وتبقى عارّية من الأورّاق حتى بداية فصـل الأمطار، حيث تورق

أوراقاً كبيرة مركبة، كفية، تتكون من خمسة إلى سبعة وُريقات، غنّية بالسكر والفيتامين والمعادن.

أهالي البلدة القديمة كانوا يقطفون الأورّاق الطرّية اليانعة والنامية للتو، فياكلونها طازجة مثلها مثل أي خضروات معروفةً أو يجففونها ثم يطحنونها، لتستخدم في تحضير بعض الأطعمة.

ويؤكد بصير البلدة القديمّة، رغم أنف العطار كبسور النطاسي، أن لهذه الأورّاق تأثيرات علاجية للحمّى.

في الظهيرات نهاية موسم الجفاف، وعندما تورق الأشجار تبدأ البراعم الزهرية بالانتفاخ، وعندما يحل المساء تتفتح الزهرّة متدلية كبيرة، يتراوح قطرها بين الكف والكفين، تمد عنقها الطويل السميك، وأوراقها التويجية الشمعية الخضراء الكبيرة، تنحني إلى الأعلى؛ ويشغل وسط الزهرّة الميسم ذو القلم الطويل، والذي تنتشر حوله الكثير من الأسدية ذات الخيوط البيضاء، والمتوك البنية اللون، وبذلك يبدو كفرشاة الحلاقة.

مدة الأزهار لا تدوم إلا لفترة قصيرّة تكفي للتلقيح، إذ عندما ينبلج الصبح تكون قد انغلقت وذبلت، وتغيّر لونها من الأصفر إلى الذهبي، المائل إلى الخضرّة، بعد أن تم تلقيحها بواسطة الحيران، أو الرّياح أو خفافيش الليل أو حشرات الرّحيق، التي تنجذب إليها بسبب الرائحة العطنة، التي تفرزها الأزهار أثناء تفتحها.

وتزور هذه الحيوانات الأزهار لتتغذى على المياسم الكبيرة، وتمتص الرّحيق منها، وطبيعي أن لا يرى الأهالي الخفافيش ليلاً عندما تزور الأزهار، ولكن يستدلون على ذلك من آثار مخالبها، التي تتركها على الأوراق التويجية.

والأزهار التي لم تلقح، تسقط من الشجرّة، حيث تستسيغها حيوانات الرّعي، كالأغنام والماعز، التي تفيض عنها البلدة القديمّة.

بعد التلقيح والإخصاب يتكوّن التمر على نواته الحصوية ناعمة الملمس، التي تخلو نعومتها من ذلك الاحساس المخملي، الذي يمنحه الرّغب الكثيف في غلفة التبلدي، والذي يغطي قشرّتها السميكة والصلبة القاسية، التي يصل طولها إلى قدم أحيانا.

ومن كليهما يصنع الأهالي عصير "الشربوت" اللطيف، والذي دوناً عن كثير من المشروبات التي يحبونها، يخصصونه للمناسبات؛ التي يتناولون فيها الكثير من اللحوم!

ولطالما اقترح عليهم الرّحالة "الحبرتجية" في محاولات سبرهم لأسرار الشجرّة، أن يخرجوا بهذا المشروب من نطاقه الضيق إلى آفاق أرحب، وفي الحقيقة لم يأبه أحد لقولهم، بل أخذ الأهالي ينظرون إليهم بشك وريبة، يحدثون أنفسهم عن طمع هؤلاء "الحبرتجية" في ثرواتهم، فلطالما ظنوا أن

الرحالة، الذين يرتادون البلدة القديمّة، ليسوا سوى طلائع استكشافية للغزاة!

كان الأهالي للحصول على مشروب البلح، ينقعون التمر لفترة زمنية لا تزيد عن سحابة نهار، أو ربما يقطرونه إذا أرادوه مسكراً كافراً!

ولطالما زعم بصير البلدة القديمّة، وهو يتحدث كأنه العطار كبسور النطاسي، أن له فوائد علاجية، في معالجة الإسهال ووقف النزيف.

حيث تطحن البذور ويغلى المسحوق، ليشرب سائلاً حاراً كالشاي. ومع أن النخيل شجرّة صحراوية في الأصل، إلا أنها كالحراز! بقدر غرامها بالماء إلا أن المطر يصيب ثمارها في مقتل.

داهم السلطان الجديد؛ المقدّس سرّه دكام؛ آخر الأحفاد غير الشرّعيين للمُبْيِر، كل المدن والبلدات، التي تدين لبني الأعْتم بالولاء.. قتل الرجال وسبى النساء، ولَم تنج من فحولة جنده؛ إلا اللواتي رّمين بأنفسهن في النيل؛ والأودية الهادرّة والبحر الملون. بعض الرواة يقولون:

"بل جميعهن رّمين بأنفسهن في أعماق المياه الهادرّة للنّهر، ولَم تتبق منهن واحدة على قيد الحياة".

لكن أصحاب الكناتين، العليمين بالخفايا؛ يزعمون أن هذا الحدّيث عارٍ من الصحة، مرجعيتهم في ذلك نساء الحي. اللاتي أكدن أنه لم تنتحر ولا

واحدة، من نساء بني الأعتم، ولَم يُقتل من رجالهم، سوى الذين شاركوا في الحرب.

وإذا الأمر ليس كذلك؛ كيف يتم تفسير نسل بني الأعتم، الذي ظل يتكاثر كالذباب عبر التاريخ؟! وعلى أية حال؛ لم تكن هذه الروايات المتضاربة، ما يشغل بال الأيهم.

فهو كآخر الناجين من المقرّبين لرجالات العهد البائد، عندما يتذكر أولئك الرجال من بني الأعتم، ووقائع حياتهم. يصيبه نوع من الاكتئاب العميق.

رحلوا جميعاً؛ ولَم يتبق من سيرتهم؛ سوى زوجات وجواري حبيبات طاعنات في الأسى المقيم، ونوع غريب من الحزن يليق بهن؛ يراه في عيون أم رشوم، رحل الكحل، قمر السبوع، أم عبل، مطر العينة، وأم عشوش خناقة الدلوكة، بل يراه مختبئاً في عيون كل عذارى بلدة صانع الفخار الضائعة!

فيحاول الهرب من هذه الذكريات، ويقرّر أن ينشيء مع عشا البايتات حفيد الخمار السلولي؛ في الموضع الذي هاجت فيه هذه الذكريات، أعظم خمارّة عرفها تاريخ البلاد الأسيرّة، بدلا عن الخمارة القديمة!

وبالفعل تم له ذلك، إذ أنشأ الخمارّة وألحق بها دور للنساء اللاتي يمتهن بيع المتعة، وحجرات بمثابة منازل تقدم للمسافرين والقادمين من الغرباء،

الفراش والطعام والشـــراب، ريثما يقر قرارهم في الإقامة أو مواصـــلة الرّحيل.

كانت جل نســاء هذه المنازل، التي ألحقها عشــا البايتات بالخمارّة ذات الســمعة، التي طبقت شــهرتها آفاق البلاد الأســيرّة، من الهاربات من أقوامهن لسبب ما!

أو اللاتي تقطعت بهن سـبل الحيّاة، أو كن جواري فعتقن لوجه رب تعاليم المنتظر.. وعلى نحوٍ عام، كانت ســاكنات هذه المنازل؛ هاربات من العار أو باحثات عن الأمان، أو يدارين حزناً تمكن منهن؛ ببلســم الهروب؛ ومحاولة النسيان المستحيلة!

كما كان ســكانها؛ من الذين يخشــون الرقيب، أو المطلوبين في جرائم وثارات! وهكذا شــكَّل هؤلاء جميعهم، النوّاة الجديدّة لمجتمع تكون في طبول الحرب، والنّحاس و"نقارة الورّل" والمخاوف.

مجتمع نشأ في الهواجس والظنون.. هو مجتمع بلدة صانع الفخار!

لذا لم تستمر دهشـة عشـا البايتات طويلاً، عندما وفدت إليه تلك المرأة العجوز وابنتها، واستضافهم في غرفته المخصوصة، إذ أدرك بحس خفي، أن لابد وراءهما مأساة.

كانت العجوز الطاعنة في السـن، قد أزاحت خمارها تكشـف عن جمال قديم، واتكأت على وسادة خيش محشو بالقش. وقد بان شعرها المشتعل بالشيب، خفيفاً ورخواً ومتفرقاً!.

فيما حفيدتها الشابة الفتية، متكئة على جدار الغرفة وقد رّمت نقابها على حجرها، كاشـفةً عن شـعر أليل، وأطول من ليل الشـتاء، ووجه بديع التقاطيع ليس له سابق مثال.

وقد بدى واضـحاً على محياها الملائكي البديع، آثار شـرف وعز تليد. فرق قلبه وارتجف بقوّة. والتي ما أن رأت عشا البايتات، يخطو إلى الغرفة؛ حتى امتدت يدها بسرعة خاطفة إلى نقابها؛ وهي تطرق رأسها إلى الأرض.

فارتبك عشا البايتات وقال:

"جئت أتفقد حالكما. هل تحتاجان أي شيء؟"

فردت العجوز:

"شكرا يا ولدي.."

صمتت لبرهة ثم أضافت:

"مرت أربعة أيام ولَم تسألنا من نحن!"

وفِي الحقيقة كان الفضول ينهشه نهشاً:

"لم أرد مضايقتكما"

أمعنت العجوز في وجهه النظر طويلاً. كأنها تحاوّل أغماد حزنها العميق في عينيه. كان وجهها عميق الكآبة. فيما بدت الفتاة كأنها تناضل باستماتة، لتتمالك نفسـها من الاجهاش بالبكاء. أمسـكت العجوز بزمام أمرها، وكبحت جماح مشاعرها، وحاولت أن تقول بصوت هادي:

"نحن من أزلهن الدّهر بعد عز وشرف"

حسم عشا البايتات تردده:

"من أنت يا أماه"

نظرت بقوّة في عمق عينيه، وقالت بحسم:

"أنا دار النعيم أم المقدّس سرّه القتيل، وهذه الأميرة القن ابنته"

كان عشـا البايتات يتوقع كل شـيء إلا هذا. فانتابه نوع من الصـدمة والارتباك، واختلطت داخله مشاعر شتى، تنازعته وجعلته نهب الخواطر. ألجمته الدهشة وعقدت لسانه..

وما أن تمالك نفسه بعد مرور وقت لا يدري مدته، قال:

"ظننت أن أهل المقدّس سرّه جميعهم قتلوا؟!"

"لم ينج سـوانا، ولا يعلم أحد بوجودنا على قيد الحيّاة، سـوى ثلاثة من خاصتنا، وهم من أشاروا لنا بأن نقصدك ريثما يلتحقون بِنَا"

"وبعد أن يلتحقوا بكم"

"لديهم خطة محكمة لتهريبنا خارج البلاد الأسيرّة"

"وكيف يثقون في أنني لن أشي بكم وبهم"

"لأنك تعرفهم. جمعتكم الطائفة نفسها، أيها الأرقم" انتفض عشا البايتات، وانعقد حاجباه.. بمرور السنوات، وهو يحمل اسما غير اسمه، كاد ينسى اسمه الحقيقي إلى أن ذكرته به العجوز، استرد نفسه من خواطرها وقال بحسم:

"لا تقلقا، ستكونان في أمان. يجب أن أدبر لكما أولا مأوى آخر غير هذا المأوى".

كان عشا البايتات؛ رجلاً أربعينياً عركه الدهر مبكراً، وقست عليه الحياة كثيراً، حتى ليبدو في ضعف سنه الحقيقي، ويبدو أن ما فعلته به الحياة، جعله هيناً ليناً عذباً، لا يقول إلا ما يرضي زبائنه، الذين تعددّت أغراضهم ولهجاتهم!

في الحقيقة؛ رغم صغر سنه؛ وكمعظم أهالي بلدة صانع الفخار، عاصر عشا البايتات، ثلاثة من المقدسة أسرّارهم من سلاطين بني الاعتم:

"السلطان رماد" الملقب بجبل الضرى، "السلطان الترح" الملقب بقشاش الدموع، و"السلطان دقاش" الملقب بسيد القدح! والذين ثلاثتهم لم تستمر ولاية أي منهم إلا قليلاً؛ ريثما يُقتل!

فخصـــوم بني الاعتم داخل الأســـرّة الحاكمة وخارجها، كانوا بعدد ذرّات الرّمل! لذا يزعم كُثُر أن عشا البايتات، شهد كثيراً من الوقائع والأحداث، بحكم وظيفته كخمار وقواد ونخاس، واطلع على الكثير من دقائق الأسرار. ففضلاً عن أسرار الانقلابات الفاشلة، التي اجتاحت سلطان بني الاعتم، وانتهت بمقتل قادتها؛ الذين تقف خلفهم طوائف من كل جنس ولون، كان خزانة أسرار، لانقلابات الأسرّة الحاكمة على بعضها البعض! ما نجح منها وما فشل، هذا غير اطلاعه على أسرار حريم القصر، وعشاقهن من رجال الدولة، وعامة شعب بلدة صانع الفخار!

وعلى سـعة اطلاع الرجل، على حقائق خفية وأنصـافها، وأسـرار خطيرّة وأرباعها! إلا أنه ظل خلافاً لجدّه الأكبر المزعوم "الخمار السـلولي" كتوماً؛ لا يرى ولا يسمع.

رغم تعمده الواضـح؛ إعمال خياشـيمه، في تشـمم كل حدّيث؛ يجري في خمارّته، أو منازل النسـاء اللاتي يعملن عنده، مهما كان حديثاً تافهاً، دون أن يبدو عليه اهتمام، لما تحســسـته خياشـيمه البارعة، ما ظهر منها وما بطن!

لم يكن عشـا البايتات، مجرد صـاحب خمارّة؛ كالخمارين الذين انتشـروا في القبل الأربعة للبلاد الأســيرّة، إذ تعدت شــبكة علاقاته عوالم خمارته، لتتشابك مع كل طبقات المجتمع وشرائحه وفئاته؛ رجاله وشبابه.

حتى أن أهل بلدة صانع الفخار، في جلسات أنسهم؛ كثيراً ما يستعيدون حكايته؛ مع تلك المرأة الفارسة، التي نشب بينها وبينه نقاشاً حاداً، عندما أخذت تحرض ابنها على القتال ضـــد دقاش، وتحثه على ترك الدروس وحفظ تعاليم المنتظر، ليشارك في الحرب مع أحفاد أبناء عّم المنتظر، ضد أبناء أعمامه من آل الأعْتم، وتقول:

"لو كنت ود بطني؛ التي لا تنجب سوى الأبطال، قاتل مع خيلانك ضد أعمامك"

ثم أنشدت أبياتاً غنتها النعيسانة بابتهاج مريب! على وقع دلوكة أم رشوم، التي اختنقت كما لم تختنق يوماً، حتى تحشرجت حلوق الجند والعسس في أرض المعركة:

"أنا ماني أمك وانت ماك ولدى

بطنك كرّشت وغنّ البنات ناسي

دقنك حمّست جلدك خرش مو في"

وهكذا مضى يقاتل؛ ليقضي نحبه كغيرّه من الضحايا الكُثر، في الحروب الخاسرّة. التي ظلت تخوضها البلاد الأسيرّة، فأصبحت تحمل طابعها.

وفِي الواقع، اعتاد زبائن عشـــا البايتات، على دماثة خلقه، ولطفه ورقته؛ التي تفوق عذوبة أكثر النســاء افتراســا! كانوا لا يتورعون في الإســهال، بكل ما يخزنون من أسرّار، أقصى تلافيف مكنوناتهم!

كانت خمارّة عشا البايتات، ومنازل عاملاته؛ مبنية من الطين النئ والقش والقنا، الذي يتسلقه اللبلاب من سقف العرش إلى واجهة المبنى. وفِي الخمارّة والمنازل، فُرش الحصير المنضوم في نظام بديع، وتناثرت على كل حصيرّة، حشوّة أو حشوتين من الخيش والقش، كما انتظمت على جدران الخمارّة، كوى وضعت عليها رفوف من الحصير. رصت فيها دنان الخمر البلدي ثقيله وخفيفه، تموره وكرومه وعيوشه وسمسمه.

وكان يخص خواصه، بأجود خمور الكروم المستوردة، من بلدة اندرين على خاصرّة النّهرين.

إذ كان الرجل، صاحب ذوق رفيع في أنواع الشراب، بخياشيمه فقط؛ يستطيع أن يميز الردئ والجيد منها؛ في سهولة محيرّة.

وقد تبدى الحس الجمالي الأنيق للرجل؛ في المنحوتات الفخارية، التي جملت زوايا الخمارّة، كما كشفت الدفوف و"أم كيكي" و"الزُّمبارة"، التي تعزف عليها عاملاته، عن حس عميق بالبهجة والانديا حات، التي يقتضيها واقع الحال؛ الناتج عن الحضور العالي للخمر، في أعماق وجدان البلدة القديمّة، لدرجة أن زبائنه ظلوا في حالة دائمة؛ من تشابه البقر عليهم!

فضــلاً عن أن الرجل؛ كان يعزف الآلات الموســيقية بحس مرهف، ويغني بصـــوت رّخيم ســـاحر عميق القرار! كما كان الرّقص من أحب هواياته البديعة!

وكان عندما ينشد المشكار لجلسائه، يتفوق لا على النعيسانة وحدها. بل على كل حكامات البلاد الاسيرّة البارعات.

وعندما يضــرب على الدلوكة ويغني، تتضــائل الدهشــة ذات نفســها، وتنزوي أم رشوم بكل براعتها، أقصى زقاقات بلدة صانع الفخار.

بل إن الحكام الجدد وعلية القوم، في الطبقات الجديدة؛ التي نشـــأت مع تدفق أموال الغزو وفتح البلدان، وأيلولة السلطة لصانعي الفخار، الذين كأنو لا يقيمون أعراسهم، إلا بحضور المقدّس سرّه "لدقة السيرّة" ليلهب حماس أهالي البلدة، قبل أن يلهب حماس أصحاب العرس.

فيبرز الجميع "للبطان" يتجالدون راكزين، لا يتجرس أحد منهم، مهما اشــتد على ظهره وقع ســوط "العنج"، المشــرّب بالقطران وزيت سمســم عصارّة الجمل. فيبرز الشباب يعرضون أمام النسوّة؛ والفتيات. ويتلقون "شبالاتهم ."

وربما بلغ الحماس بأحدهم مبلغه، فيستل سكينه من ضراعه؛ ويحركها مرّة أو مرّتين، على رأس عشا البايتات؛ قبل أن ينتقل بها؛ "ليشوري" معصمه؛ أعلى هامة مراقصــته، التي منحته الشــبال، غير هياباً أو آبهاً للألم والدّم،

الذي يتدفق ويسـيل من معصـمه، منحدراً من رأس مراقصـته، سـائلاً من وجهها في نُهير أو نُهيرين على صدرّها!

وتعلو الأصوات تردد خلف عشا البايتات:

"كوفيتك الخودة أم عصا بولاد

درعك في أم لهيب زي الشمس وقاد

سيفك من سقايتو استعـجب الحداد

قارحك غير شكال ما بيقربو الشداد"

ويرجع صدى الصوت في بحة النعيسانة:

"الليلة العقيد شوفنو متمسكن

وفي قلب التراب شوفنو متجكن

الراي فارقو لا بشفي لا بمكن

ما تتعجبن ضيم الرجال يمكن

خلوكن براكن الليلة وحدكن

بتمشن تحاربن ولا بتتبكن"

وتشـــيل خلفها أم رشـــوم، كأن مئات من الجوقة يرددون معها، وتنزع بضرباتها كبد الدلوكة، كأن كل دلاليك العالم، ينشـج صـدرها دفعة واحدة في تلك اللحظة!

وهكذا في أحد الأيام الغابرة؛ وقف عشـــا البايتات أمام خمارّته يترقب الزبائن، و خياشيمه تتحسس فضاء بلدة صانع الفخار، انقضى النّهار دون أن يطرق على باب خمارّته أحد، فدخل يعد غدائه.

أشـــعل النّار، وفيما هو ينفخ في الوقود، والدّخان يتصـــاعد على وجهه؛ يتخلل لحيته ويغشى عمامته، وقد استوفز وشمر ساعديه.. سمع صوت وقع حوافر؛ أمام خمارته!

التفت نحو الباب؛ فرأى شـــيخاً طويل القامة، منحني الظهر قليلاً. بدى من شعثه واضحاً؛ أنه قطع مسافة طويلة، على صهوة جواده.

كانت عيناه تلمعان ببريق عجيب، يضـــفي على هيئته الوقورّة؛ نوعاً غامضـــاً من الهيبة والإجلال. ودون أن يترجل؛ انحنى قليلاً تجاه عشـــا البايتات يسأله:

"هل هذه خمارة عشا البايتات السلولي"

"أو تعرفني يا شيخ"

"لا"

شعر عشا البايتات بنوع من الغبطة، لشهرة خمارّته. وكان لا يزال مطرقا؛ لا يجرؤ على رفع عينيه؛ بوجه الشـــيخ الوقور، الذي قال بعد فترة من الصمت القصير:

"هل لديك مكان للرّاحة؟"

"نعم لدي مكان للراحة والطعام والشراب و..."

وأراد ان يضيف:

"والنساء والخمر"

لكنه استرد نفسه سريعاً وتفادى ذكر ذلك.

"حسنا، سيجئ إلى خمارتك؛ رجل يرتدي عمامة سوداء كبيرة؛ سيسألك؛ عني فجئني به حيث أُقيم"

ثم أضاف بنبرة تهديد:

"وتأكد أن محل اقامتي آمنا من المتلصـــصـــين، ولا يمكن أن تقترن به الصدف أيها الأرقم"

فرد عشا البايتات بذعر:

"ثق تماماً يا سيدي؛ لن يكتشف وجودكما أحد"

اعترى عشا البايتات القلق، لإدراكه أن السبات الطويل، الذي كان ينعم به كأرقم قد ولى، بعد أن قدمت المرأة العجوز وحفيدتها، والآن هذا الرجل ذو العمامة السوداء، وربما غداً ترسل الطائفة أحداً آخر، يفاجئه بكلمة السر "الأرقم ."

وفيما عشا البايتات؛ نهباً لهواجسه. انتحى الشيخ، فتقدم يقوده إلى غرفة بعيدة، منزوية عن المنازل المتراصة المترابطة حول الخمارّة. فتح باب الغرفة وقال:

"تفضل هذه غرفتي المخصوصة التي لا يدخلها أحد سواي"

استشعر عشا البايتات؛ أن خلف الرجل ما خلفه، وأن للأمر صلة بالمرأة العجوز وحفيدتها؛ بعد الانقلاب الذي أزكمت رائحته كل الأنوف، دون أن تفوح وتزكم رئة المقدّس سرّه فقتل لهذا السبب بالذات.

لم تمض سوى سويعات قليلة، حتى دلف إلى الخمارّة رجلاً غريب الهيئة، كان بديناً دميماً قصير القامة، في حركة خطواته الواثقة خفة، تنطوي على خيلاء وتجبر. قال دون أن يلقي التحية:

"هل هناك من يتوقع قدومي هنا؟"

تردد عشا البايتات قليلاً، فالرجل لم ينطق كلمة السر. والشيخ لم يخبره باسم الرجل الذي يتوقعه، بل لا يعرف للشيخ نفسه اسماً. وفيما هو يفكر في إجابة مناسبة، استدرك الرجل مبتسماً:

"أيها الأرقم"

فابتسم عشا البايتات وقد حسم تردده قائلاً:

"نعم يا سيدي. اتبعني"

وقاده إلى أن توقفا أمام باب الغرفة؛ التي ادعى أنها مخصوصة، وطرق على الباب؛ فإذا وجه الشيخ يطل متحفزا.

جذب الشـــيخ الرجل إلى الداخل ســـريعاً، وأغلق الباب خلفه، دون أن ينطق بأي كلمة. وقبل أن يتمالك عشـــا البايتات نفســـه فوجئ بالأيهم ينتصب أمامه وهو يقول:

"إنهم في انتظاري أيها الأرقم"

تسمر عشا البايتات مذهولاً، فآخر ما قد يخطر على باله أن يكون الأيهم أيضـــا من نقباء الطائفة الســـريين، الذين لا يجتمعون إلا لأمر جلل.. كان متسمراً في دهشته، إلى أن انتزعه صوتاً من قبل باب الخمارّه يناديه:

"عشا البايتات. يا عشا البايتات أيها الخمار السلولي"

فخفق قلبه ارتباكا، وأسرع يلبي النداء، وهو يقول في نفسه:

"انه ليس الوقت المناسب لزبون"

وجد المنادي رجلاً من زبالين "الجالوص" يدعى العنتيل. بصحبة رفيق له. كان الزبال العنتيل، كعادته حافي القدمين متسـخ الثياب، تفوح منه رائحة كرائحة الجيفة، فيما بدى رفيقه نظيفاً، لكن غريباً ومريباً؛ لم يســـبق له أن رَآه من قبل في بلدة صـــانع الفخار، التي يزعم أنه يعرف حتى مواليدها الجدد.

كان الزبال يقضـم شـيئاً في يده، لم يسـتطع عشـا البايتات تبينه. أو تبين كلامه الذي خرج من بين تلافيف لوكه الطعام، ممضـــوغاً غير واضـــحاً، فتقدم منهما مرحباً؛ وهو يقول:

"مرحباً مرحباً تفضلوا"

فرد العنتيل:

"لن ندخل إلا إذا أجبتني إلى ما جئناك فيه"

"وما ذاك؟"

أشار العنتيل لرفيقه:

"انها حاجة لصديقي وشم الدّم بن نقيع السُّم القصاب"

"وما حاجته؟"

"علمنا أن لديك ضيفة، يظن أنها حبيبته القن"

"ومن أين له هذا الظن؟"

"رآها صديقه الشاعر الصعلوك؛ عشميق الأصم وهي تحادثك عند مدخل الخمارّة"

صمت عشا البايتات متفكراً لبرهة؛ ثم قال:

هذا صحيح"

"وّشم الدّم يعشقها. بحث عنها كثيراً إلى أن علم بوجودها هنا فجاء ليأخذها"

ضحك عشا البايتات؛ فقطب العنتيل حاجبيه متسائلاً:

"لماذا تضحك"

"إن كانت هي من يظنها حقاً، فقرار بقائها أو ذهابها معه، بيدها وحدها وليس بيدي.. دعا هذا الأمر جانباً الآن، وتفضـــلا إلى الداخل واطلعاني على الحكاية كلها، من أولها لآخرها، علني أستطيع مساعدتكما"

وما أن جلســـا على احدى الحُصّـــر، حتى أخذ العنتيل يحكي؛ فيما كان "وّشم الدّم" مطرقاً؛ في صمت عميق، قال العنتيل:

"لم يعشق أحداً؛ القن كما عشقها وّشم الدّم"

قاطعه عشا البايتات:

"أين عرفها حتى يعشقها؟"

"كانا يعيشان في البلدة نفسها، قبل أن تختفي" "ولماذا اختفت؟"

"كانت تحب شـــاباً اسمه "مقنع الوليات" وكان هو الآخر يحبها أكثر من نفســـه، وُجد قتيلاً قُرب قيف النّهر، قُبيل زواجه منها بأســبوع، ولَم تمض سوى أيام؛ حتى اختفت القن.."

ثم أشار العنتيل إلى صديقه وّشم الدّم وواصل:

"أنه يحبها أكثر من نفســـه، وليس لديها مبرر لرفض حبه لها الآن، بعد أن فقدت حبيبها مقنع الوليات"

"ومن أين علمت أنه ليس لديها مبرر، لرفض صديقك هذا؟!"

كانا يتبادلان الحديث بينهما، فيما وّشـــم الدّم على إطراقته غارقاً في الصّمت، لا ينبس ببنت شفة! وقتها، وعلى الجانب الآخر في أحد المنازل

السـرية التي تحيط بالخمارّة، جلس الأيهم إلى العجوز وابنتها والرجال الثلاثة، يتبادلون أحاديثاً شـائكة، وبعد أن أنهوا حديثهم، انتحى الأيهم بالقن التي كانت تقلب رقعة الجلد بين أصـابعها، وتنظر إليه طوال الوقت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا واسعة!

سألها:

"إذن متى أراك مرّة أخرى؟"

"تعرف أين تجدني"

"لا؛ لا لقد عرفت الدرب الآن، فماذا لو تسللت بعد العشاء. سأنتظرك لدينا الكثير لنقوله"

نظرت القن في غور عينيه بعمق؛ وأومأت برأسـها فيما نهض الأيهم يهم بالانصراف.

عند الظهيرة تسللّت القن خلسة، بعد أن خمدت جدتها في قيلولتها، غارقة في الوسن.

فيما كان عاشميق الأصم؛ الذي لم يكشف للقن عن معرفته بوشم الدم، قد جن جنونه منذ رأى القن للمرّة الأولى فرّق قلبه لها، وقرر الحصول عليها لنفسه، ثم ما لبث أن تصيدها واستوقفها وأفضى لها بمكنوناته وتواعدا أن يلتقيا؛ حيث وجد مقتولاً تحت شجرة صانع الفخار!

أهالي البلدة القديمّة؛ يحترمون شجرّة النخيل أيما احترام، فهي عندهم شجرّة الحياة، التي ترمز إلى الخصوبة والعطاء، لذلك فالسكان المحليين عند انتقال محل سكنهم من قرّية إلى أخرى، عليهم أن يأخذوا معهم، فسائل شجرّة النخيل أو بذورها وزراعتها في موطنهم الجديد.

وهذا الإحترام نابع من المعتقدات والأساطير والحكايات الشعبية، التي تروى عن هذه الشجرّة؛ إذ يعتقدون، بأن من يشرب من الماء المستخلص من عصر نواتها، تصبح لديه القوّة والشجاعة.

بل وكانوا يعمدون إلى غسل جسم الأطفال الصغار، بماء النوّاة، ليكونوا أقوياء وأبطال في مستقبل البلدة الغامض، ولكن لا يجب أن يستحم الطفل لفترّة طويلة في الماء، كي لا يصبح بديناً، كما يجب الإنتباه أن لا يبلّل رأسه بهذا الماء، كي لا يصبح ضخماً منتفخاً.

وهناك إعتقاد رّوج له بصـــير البلدة القديمة رغم أنف العطار كبســـور النطاسي، بأن من يمتص رطوبة البذور "القليلة الرطوبة أصلاً" سيحصل على الحماية، من التعرض لمهاجمة الحيتان، مع أن الوديان التي تحيط نخلة صانع الفخار؛ عبر تاريخها، لم يُعرّف عنها أنها موطناً لأي نوع من الحيتان! فالبلاد الأسيرّة؛ تعج بالتماسيح فقط!

ومع ذلك قالوا، حسب التاريخ المنسوب إلى الأيهم، أن من يأكل البذور؛ سيجلب على نفسه خطر الحيتان العملاقة!

وخوفاً من فاجعة تصـيبهم، لا أحد يجازف بقطع زهرّة الشـجرّة، سـواء كانت نخلة ذكر أو أنثى، لاعتقادهم بأن أرواح الأسـود والنمور؛ تسـكن هذه الأزهار، ومن يقطع زهرّة منها فسيكون مصيرّه الإفتراس.

وشكل الشجرّة الذي تبدو فيها؛ وكأنها مظلة أوحى بالكثير من الأساطير والمعتقدات الشعبية في "دار صباح" الذين أشاعوا أن الجدّة الأولى لهذه الأشـــجار، ارتعبت من الفيلة؛ ومن خوفها مدّت عنقها، وغطت وجهها بشعرها!

أما الأسـطورّة الشـائعة في نواحي "دار الريح" حول نخلة صـانع الفخار تزعم؛ أن الإله الخالق ضـجر من كثرّة تنقل هذه الشـجرّة، فانتزعها من جذورها؛ وقذف بها إلى الصحراء؛ فأصبحت أينما وُجدت؛ تغطي رأسها بشعرها، تتفادى رؤية ما سيحدث لها!

أما في المناطق أسـفل النّهر، يعتقد القوم؛ أن الشـيطان هو الذي انتزعها من الصـحراء، وغرسـها هنا على ضـفاف النّهر، الذي يشـق الصـحراء فيحوّل البلاد الأسيرّة، إلى سهل واسع؛ ينتهي في الصحراء!

فيما يزعم أهل صـعيد النّهر، أن شـجرّة النخيل هي أول شـجرة أنبتها الخالق على وجه الأرض، وبعدها خلق التبلدي؛ بجذعها المنكفئ على الأرض، كأنها مقلوبة راسـاً على عقب. وذلك لأنه ما أن اكتمل خلقها، ورأت النخلة؛ ثارت غيرّتها متبرمة، وقالت:

"لماذا لا أكون أطول من النخلة؟"

وعندما أنبت الخالق شـجرّة القمبيل الجميلة المهيبة، توسـلت إلى الخالق؛ أن يكون لها ثماراً لذيذة مثل ثمار شـجرّة النخيل، فنفذ صـبر الخالق مقتلعاً إياها من جذورها، قالباً إياها في الأرض، رأسـاً على عقب، كي لا تتبرم بعد ذلك!

وعلى أية حال؛ مزّجت الجماعات والفرق والطوائف السـرّية، هذه الأساطير؛ مع تعاليم المنتظر، في صراعها الضروس ضد دولة بني الاعتم، ودولة أحفاد ابن عّم المنتظر، التي نهضت على أنقاض دولة بني الأعْتم!

وهكذا طغت الأساطير على التعاليم الحقيقية!

ولغرّابة مظهر الشجرّة؛ وهي عارّية بين أقرانها الأشجار دائمة الخضرّة، لا زالت الأمهات والجدات؛ يروين حكايات للأطفال؛ نابعة من خصوصية هذه الشجرّة، فتحكي حبوبات نخلة صانع الفخار في حجاهن:

"أن شجرّة التبلدي، دعت كل حيوانات الغابة، من نمور وأسود وذئاب وقرود وفيلة، إلى حفلة ختان أولادها، فأكلوا وشربوا ورقصوا فرحين بالمناسبة، وأثناء الحفل تلبدت السماء بالغيوم، وقبل أن يتمكنوا من اللجوء إلى مكان يحتمون فيه، هطلت الأمطار بغزارة، مما دعى الحيوانات إلى الهرب مسرعين.

وأثناء الهرج والمرج، دعس الفيل أولاد شجرّة التبلدي، فحزنت الشجرّة على موتهم، ولحزنها العظيم سقطت أوراقها ألماً على فراق أولادها".

توارث الأهالي فيما توارثوا من حكايات، أن شجرّة التبلدي نهضت بغتةً، في اللحظة ذاتها التي انصرف فيها النّاس، بعد أن واروا صانع الفخار في مثواه الأخير.

وتضيف هذه الحكاية نفسها، أنهم حالما انصرفوا، غادر صانع الفخار ضريحه، الذي شيده في حياته قبل أن يموت، وتحوّل إلى شجرّة نخيل لم يرى الأهالي لها مثيل من قبل، فأصبحوا يطلقون عليها، اسم شجرّة صانع الفخار المقدّسة!

وهو الاســـم الذي توارثوه عبر عشـــرات القرون! ورغم أن وادي الرُّحل القدّيم، لم يعد هو وادي الرُّحل ذاته قبل مئات السنوات، عند ولادة هذه الحكايات للمرّة الأولى، ولا عاد الرُّحل هم ذاتهم، أولئك الهائمين على وجوههم، بحثاً عن الماء والكلأ، يمتهنون من آن لآخر غزو بعضهم البعض وسلب ما يملكون!

إلا أن الشـــجرّة ظلت هي نفســـها كما هي، ضـــاربة بجذورها في أعماق الوادي، حيث تتسلل هذه الجذور، إلى بيوت النّاس تتسلقها وتعرشها، إذ لم يكن هناك من ثمّة بحاجة لسقف منزله.. ما عليه سوى بناءه، وفي غفلة منه يجد جريد الشـــجرّة وجذورها، خرجت من الأرض وتســـلقت الجُدُر، وسقفت البيت!

لم تكن شجرّة صانع الفخار؛ شجرّة عادية، ففضلاً عن جذورها العميقة، التي تتسلل لسقف بيوت الأهالي، كانت ضخمة الساق بشكل لا يقاس، ومجوفة كشجرّة التبلدي؛ فيما يشبه إناءً عملاقاً، يحفظ ماء المطر، وتمر عبر جذورها مياه عيون الأرض العذبة، لتنضح على هذا الإناء الجبار، الذي هو جوفها!

إذ كانت مصدراً لا ينضب من مصادر المياه، فِي واحات البلاد الأسيرّة القاحلة؛ في الآن نفسه خزاناً عملاقاً، ولهذا السبب لم يكن الأهالي، في سنوات المحل والقحط يعانون العطش، الذي تعانيه قبائل الرُّحل الأخرّى! ولهذا السبب أيضاً، قرر كثيرون الاستقرار في هذا الوادي، حول الشجرّة، وهجر حيّاة الترحال. وهكذا تجمعت أقوام مختلفة، حول شجرّة صانع الفخار وأسست البلدة القديمّة، التي صار اسمها بلدة الترح، فالمدينة الجديدة فبلدة صانع الفخار؛ إلى أن انتهت إلى اسم بلدّة الخمار السلولي. والتي كانت في غابر الأزمان، موضعاً يمرّون به، يستريحون فيه؛ قبل أن يواصلوا ترحالهم في فلوات وبوادي البلاد الأسيرّة الشاسعة!

لكن التأسيس الحقيقي المنظم لهذه البلدة، سبق مجهودات الترح بوقت طويل، إذ تم على عهد الأعتم الصغير، الذي حوّل البلدة القديمّة إلى مدينة كبيرة مزدهرة، بعد انتقال المنتظر وخلفائه إلى الدّار الآخرة.

ومن ثم تمكن أحفاد الأعتم؛ من انتزاع السلطة على الدولة، وهكذا عمل الأعتم الصغير، مؤسس دولة بني الأعتم وخلفائه من بعده، على توحيد كلمة أهالي الدولة الوليدة، التي تنازعتها الفتن والمؤامرات، فأقاموا الحصون والمتاريس والسدود، وحولوا مجاري الوديان، وأنشأوا جيشاً قوياً، زودوه بأساطيل بحرية، بلغوا بها الأراضي خلف البحار، واتسع مُلكهم وزادت سطوّته، وازدهرت المعارف والعلوم والآداب والفنون في عصرهم، وشهدّت بلدات البلاد الأسيرّة ازدهاراً، في البناء وفنون العمارّة، إذ شيّدت القصور وزرعت الحدائق الغناء، وأُقيمت الطرق والجسور، ورّق الطبع الجلف للأهالي، فأصبحوا يكتبون شعراً وديعاً مسالماً وعذباً، لا يخلو من اللّوعة والأشجان ونيران الشوق والهجرّان، وهكذا تخلوا تماماً عن أشعارهم البائدة، التي تقرن الحب بالحرب، وصليل السيوف ووقع الحوافر!

بل واختفى الشعراء الصعاليك الجنكويز، والهنباتة بعد أن طالتهم السجون، وشاعت أغنية حزينة مكابرة:

"زنزانة الرّماد قاطعه البصيص والضو

وفيها مسجنين ناساً أسوداً حو

أرجا الباري شن ما يريد عليك يسو

وإن وقع القدر تلقانا يابسين كو"

بعد أن اتفقت القن في تلك الظهيرة مع الأيهم، على أن تأتيه في البيت، بعد أن يتعشى النّاس وينفضوا من مجلسه، ترك الأيهم للقن، تقدير الوقت الذي ينصرف فيه النّاس.

فشــرب سمارّه العطار الأعمى والشــعراء الصــعاليك؛ وتعشــوا وتحدثوا، وخاضوا فيما يخوض فيه السكارى، وكان الأيهم على غير عادته، لا يقبل كثيراً على ندمائه، كأنه يستثقل حديثهم، يريد أن ينفض الجمع و ينصرف هو للقاء القن.

انصــرف سمارّه بعد حين وبقي هو منتظراً. ومرّت ســاعة وأخرى والقن لم تأت. ولما طال به الانتظار غلب عليه النّوم فنام.

ولم تكن القن تقدر أن جلساء الأيهم سينصرفون في الوقت الذي انصرفوا فيه، وذهبت هي تنفق الوقت، في الاستعداد للوفاء بوعدها.

فلما تقضــى الليل إلا أقله، أقبلت عليه فوجدته نائماً؛ فغضــبت غضــباً شديداً؛ لكنها لم توقظه واكتفت بأخذ المخطوطة التي وجدتها على صدره، وعلقتها على شجرة صانع الفخار.

وهكذا ظل وجه "نخلة المخطوطة" يشرق ويخبو في نسخه وأسمائه المختلفة، ليتحوّل في كل عصر من بلدة قديمّة بائسة، إلى مدينة مزدهرة فتية يانعة! إذ سرعان ما نجحت المؤامرات والدسائس، في اغتيال خلفاء بني الاعتم واحداً تلو الآخر، لينتهي المطاف بالملك، في أيدي بني عمومتهم من أحفاد ابن عّم "المنتظر"، الذين طالما اعتقدوا أنهم ورثته الشرعيون، وانتظروا طويلاً، في سبيل هذه اللحظة التاريّخية، حتى ترد بضاعتهم إليهم! وهكذا انتقلت عاصمة الملك، إلى نخلة المخطوطة.. هذه المرّة كمقر فعلي للملك، وليس مجرد عاصمة زاهرة، ككل البلدات الكبيرة، في إمبراطورية بني الأعتم بن أبي ليل الظلامي! الخلفاء الجدد.. أحفاد أبناء عمومة المنتظر.

إذا كانت مراتع الفقرا ودبة الناقة، قد مثلت بالنسبة لهم كبرى حواضر عهد الخلافة الأولى، فإن نخلة صانع الفخار، لم تعد مجرد حاضرّة على عهد خلافتهم، التي استهلوها لا بالاكتفاء بإزاحة بني عمومتهم أحفاد الأعتم فحسب، بل ومطاردتهم زنقة زنقة وحارة حارة، والتنكيل والبطش بهم، بل قضوا على أغلبهم، ولم ينج منهم إلا من هرب عبر البحار والغابات والصحاري.

اعتمد المقدس سرهم من صانعي الفخار، أحفاد ابن عّم المنتظر، في زعزعة كيان دولة بني الأعتم، على الغرباء الناقمين على بني الأعتم،

لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظهم بها، لأنفسهم وقبيلتهم.

كذلك استمالوا الطوائف والفرق والجماعات، التي أخذت تتشكّل منذ وقت بعيد. قُبيل وفاة المنتظر، واشتد ساعدها. وقُبيل أن يستقروا بعاصمتهم في نخلة صانع الفخار، كانوا قد تنقلوا بها شرقاً وغرباً، في أرجاء البلاد الأسيرّة. فمن "قردود الجن" غرباً إلى "وادي الثعابين" في الوسط إلى "دريب الريح" جنوباً، إلى أن قرروا أخيراً، أن يطيب بهم المقام في نخلة المخطوطة.

وهكذا ازدهرت بلدة نخلة المخطوطة مرة أخرى. وأصبحت أكبر بلدات عالم ذلك الزمان وأجملها، وحاضرة للعلوم والفنون والآداب، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس دولة صانعي الفخار أحفاد ابن عّم المنتظر.

ويرجع الحلاقون والحجامون، والصرماته المتخصصون في إصلاح الأحذية القديمّة، أن دوال دولتهم سببه الأساسي الغرباء!

فالسلطة لم تخرج إليهم عن يد بني الاعتم فحسب، بل أيضاً تسرّبت من بين أيديهم إلى الغرباء، الذين استعانوا بهم؛ للقضاء على بني عمومتهم؛ من بني الأعتم!

هؤلاء الغرباء الذين كان معظمهم، يندرج في فرق وحركات وجماعات سرّية، ساخطة على انحصار السلطة في سلالتي الأعتم وصانعي الفخار.

وهكذا انقسمت شعوب الإمبراطورية، وتعددت الولاءات، فتفتت الوحدّة، كما أن الاتساع الكبير للإمبراطورية، جعل من الصعب التحكم فيها، من قبل صانعي الفخار وحدهم دون سواهم، ما شجع الولاة والأمراء على الانفصال؛ بما تحت عهدتهم. لإدراكهم أن جيش السلطان المقدس سره؛ لن يصلهم إلا بعد فوات الآوان، ليصل أخيراً سلطان أحفاد ابن عّم المنتظر، إلى محطته الأخيرّة، بغزو السلباط المغولي، لنخلة المخطوطة بمساعدة من دكام حفيد المُبْيِر الجبار، والذي كان المغول قد زرعوه مبكراً، فنهب وحرق المدينة، وقتل أغلب سكانها بما فيهم آخر الخلفاء، أحفاد ابن عّم المنتظر وأبنائه، فلم يجد من تبقى من سلالته. سوى الهرب للنجاة بحياتهم.

وهكذا مثلّت هذه اللحظة الفارقة، تحوّل إمارة الأمير إلى رمز عقدي، لوحدة البلدان التي تتبع تعاليم المنتظر. فلم يعد الأمير أميراً فعلياً للإمبراطورية، التي تنازع مُلكها كل من هبّ ودب!

بل حتى هذا الرّمز المتبقي من السلطة العقدية، لأحفاد ابن عّم المنتظر، تم القضاء عليه، عندما اجتاحت جيوش الغرباء الهمج آكلي الخيل، نخلة

صــانع الفخار، فســلم آخر أحفاد بن عّم المنتظر، ســلطته طائعاً مختاراً، دون قتال للغزاة الجدد..

وهكذا للمرّة الأولى يعتلي عرش الإمبراطورية، التي شُيّدت بتعاليم المنتظر شخصاً، لا يُنسب إلى سلالته أو سلالة أبناء عمومته، آلِ الأعتم بن أبي الأعتم الظلامي!

ساوث برلينجتون،

فيرمونت

أكتوبر 2017

من إصدارات دار بسمة للنشر الإلكتروني			
الكاتب	العنوان	النوع	البلد
حسن كوكو	ريحانة	رواية	المغرب
سميرة طويل	أهازيج الغربية	شعر	بروكسيل
منصور بن ناصر الخالدي	إِمْتاعُ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ بِأَخْبَارِ العَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ	تاريخ	السعودية
سهله المدني	حروف توقع على سراب	رواية	السعودية
سهله المدني	يوميات محامي متدرب	رواية	السعودية
سهله المدني	حروف خلف القمر تسقط	رواية	السعودية
عبد الله الحكماني	الناقة الجافلة	شعر	عمان
بشرى كسوس	أعلام مغربية: نبش في الذاكرة الإبداعية	نقد	المغرب
يوسف الضباعي	مذكرة لاجئ في إسبانيا	رواية	اليمن
علي الحكماني	عيون	شعر عامي	عمان
محمد الجلال	لأني يمني	شعر	اليمن
محمد القرشي	قصائد على شاطئ الرمل	شعر	الجزائر

هشام عبد الله ورو	قراءات أدبية	نقد	اليمن
ابتسام رشيد	فرصة التغيير	نصوص	المغرب
وفاء الحجيرات	تأملات قلم	نصوص	المغرب
صفاء الصمدي	إكرام الحب دفنه	رواية	المغرب
أكرم عطيف	ثوب المدينة	شعر	اليمن
أكرم عطيف	في ظل العبير	شعر	اليمن
نجوى أبو صافي	ارتِعاشُ الصّنوبَر	شعر	فلسطين
يسرى شعيبات	بَصَائِر مِن رَّبِّكُمْ	نصوص	المغرب
يسرى شعيبات	هذا خلق الله	نصوص	المغرب
سناء شخشير	هديل روح	شعر	فلسطين
عبد الكريم شقلال	أحزان فتاة	رواية	المغرب
عبد الكريم شقلال	صرنا نكتفي بالأفراح الصغيرة	رواية	المغرب
عاطف أبو بكر	القدسُ سفيرةُ السماءِ للأرض	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	حرْكَشاتُ عاشق	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	دَنْدَناتُ عاشق	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	رباعياتُ عاشقْ	شعر	فلسطين

عاطف أبو بكر	فضفضات عاشق	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	كي لا ننسى ج1 وج2	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	مُشاكساتُ عاشقْ	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	مناكفات عاشق	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	وَبلادي بارَكَها الرَبُّ	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	خيالات عاشق	شعر	فلسطين
عاطف أبو بكر	نبضات عاشق	شعر	فلسطين
لحسن أيت باها	أنغام وادي درعة	شعر	المغرب
رضوان أحمد بن الشيخ	البِكْر	رواية	المغرب
ذمسكينوس الأزرعي	سيرة القديس الشهيد الإمبراطور	سيرة	أمريكا
عبد الصادق السراوي	محكيات طالب جنوبي	قصص	المغرب
فريد أمهاوش	العين الثالثة	شعر	بلجيكا
فريد أمهاوش	ألف ليلة وليلى	شعر	بلجيكا
فريد أمهاوش	اللهم ان هدا شعر	شعر	بلجيكا
فريد أمهاوش	أنّ وأخواتها	شعر	بلجيكا
فريد أمهاوش	هكذا تحدث شهريار	شعر	بلجيكا
أنس كريم	سلاما على الزمن الجميل	شعر	المغرب

إدريس سراج	رياض الأمير	شعر	المغرب
جمال الغوتي	همس القلب	نصوص	المغرب
أنس كريم	سلاما على الزمن الجميل	شعر	المغرب
إدريس سراج	رياض الأمير	شعر	المغرب
حليمة داحة	السنفونية المبدعة	شعر	المغرب
حليمة داحة	الأدب التفاعلي عند الأطفال	دراسة نقدية	المغرب
عبد المنعم لدي	براءة المشاعر	شعر	المغرب
سمير بن الضو	القراءة المثلى -آليات القراءة المثمرة-	دراسة	المغرب
سمير بن الضو	على هوامش الأحزان	شعر	المغرب
Abdelouhab Banan	Tell Me a Tale	رواية	المغرب
Hakima Rouidi	Espoir innocent	histoire	المغرب
HASSAN ALSHAIKH	L'abillement des anges	histoire	السعودية
Sara Hamimoune	Espoir de vie	histoire	السعودية
مجموعة أدباء	من وحي القلم	قصص	-
نهلة بلهاشمي	جوليا الهوس	رواية	المغرب
رضوان الميموني	صندوق الوديعة	شعر	المغرب
شهاب محمد	القدس موعدنا	شعر	فلسطين

شهاب محمد	فلسطين لنا	شعر	فلسطين
شهاب محمد	كلمة السر	رواية	فلسطين
شهاب محمد	سلطان الوهم	مسرحية	فلسطين
خديجة عللي أمينة الخربوع	شارلوك هولمز في حظيرة المعطي	مسرحية	المغرب
محمد القاطوف	لا تجرح الياسمين	شعر	سوريا
إكرام ازهروان	قوس وقزح	رواية	المغرب
محمد الفايز	نسختي الأنثى	رواية	المغرب
إيمان السلاوي	رحلة على بساط الشوق	نصوص	المغرب
نورة الإدريسي	ساليس	نصوص	المغرب
يسرى الخلف	الحبر اليابس	خواطر	سوريا
وفاء الزعيمي	عبق الحروف ط1	شعر	المغرب
وفاء الزعيمي	عبق الحروف ط2	شعر	المغرب
إسماعيل السخيري	قضبان من شظايا الحزن	شعر	المغرب
محمد الفايز	نسختي الأنثى	رواية	المغرب
عبد الله بن سعود الحكماني	أم الصروم وأختها	قصص	عمان
حسن مستعد	على طبق من جرح	قصص	المغرب

محمد المنصور الشقحاء	البحث عن ابتسامة	قصص	السعودية
محمد المنصور الشقحاء	الانحدار	قصص	السعودية
محمد المنصور الشقحاء	فرشاة إله الرعد	قصص	السعودية
عيسى حسناوي	أرواح مختل	رواية	المغرب
أحمد ضحية	المنشق	رواية	أمريكا
أحمد ضحية	غوّاية غرف النوم	رواية	أمريكا
أحمد ضحية	الكتابة على نهد نخلة	رواية	أمريكا
محمد عباس	هناء	رواية	اليمن
عبد الله العموري	أنسج حلما وأختفي	شعر	بروكسيل
أحمدمحمد الشديفات	أدب وصف أم معبد للرسول كأنك تراه	سيرة نبوية	الأردن
إدريس بكوش	سيحدث عندما تغيب ج1	رواية	المغرب
إدريس بكوش	سيحدث عندما تغيب ج2	رواية	المغرب

عن دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني. من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله. كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

❁❁❁

دار بسمة للنشر الإلكتروني

للاطلاع على الصــفحة الرســمة لداربســمة للنشــر الإلكتروني على الفيســبوك، يرجى مسـح الكود التالي، أو الضغط على الرابط أسفله:

https://www.facebook.com/DarBasma99

كتيب تعريفي بداربسمة للنشر الإلكتروني، أو يمكنه تحميله من خلال الرابط أسفله:

https://www.mediafire.com/download/40f9qi91ec2jtaj

❁ ❁ ❁

الجزء الثالث

ثلاثية الأدعم

بن أبي ليل الظلامي

الكتابة على نَهْدِ نخلة

دار بسمة للنشر الالكتروني

+212 771 814 934

basma24design@gmail.com

دار بسمة للنشر الالكتروني

www.darbassma.com